عبد اللّه الغذّامي

اليد واللسان

القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة

المركز الثقافي العربي

عبد الله محمد الغذامي

اليد واللسان

القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة





المركز الثقافي العربي

عبد الله محمد الغذامي

اليد واللسان

القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة

الكتاب

اليد واللسان

تأليف

عبد الله محمد الغذامي

الطبعة

الأولى، 2012

عدد الصفحات: 160

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-546-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com



الإهداء

إلى الروح الطاهرة محمد السليم

المقدمة

اليد واللسان

كان المنظر مرعباً، وقد وقع في إحدى قرى منطقة سدير، وكان ذلك في فترة تاريخية تقع بين عهدين من عهود الدولة السعودية أو هو عقب سنين سقوط الدولة الثانية، وهو حادث واقعي وأوحش ما فيه واقعيته المرعبة، وكان ذلك في أحد الكتاتيب حيث أمر المعلم واحدا من التلامذة بأن يمسك باللوح لكي يشرع في تعليمه الكتابة، وما إن قال المعلم ذلك حتى تفاجأ الجميع بأن الولد يحمل نفسه ويفر خارج الكتّاب، وهو يصرخ ويجري بسرعة مذهلة وكان يتبدى عليه الذعر وجسده كله ينتفض وقد احمر جلده وجحظت عيناه، وغاب عن الدراسة أسبوعاً، وبعد أن حضر الولد ثانية حاول المعلم توجيهه للوح الكتابة فتكررت حالة الرعب عنده، وفر مرة أخرى مخلفاً الهلع والخوف بين زملائه، وهو يكرر التصرف للمرة الثانية، وفي هذه المرة أخذ الطلبة وبعض المتطوعين ممن تكرر الموقف أمامهم، بالركض وراءه، وظل هو يعدو ويلتفت من خلفه، وكلما رآهم يتبعونه بالجري زاد من سرعته ولم يجدوا بداً من زيادة

سرعتهم للحاق به، وكان من عجبهم أن لا أحد يعرف هذا الطفل فعلاً ولا أحد يعرف أين مسكنه ولا ما هي وجهته الهارب إليها، ولكنهم تابعوا مرآه من بعيد وتوسلوا بالتعرف على وقع أقدامه على الأرض لكي تقود أبصارهم إلى مسالك الدرب، إلى أن وصلوا إلى غرفة منعزلة على طرف القرية بإزاء بستان صغير، وهناك أطلوا على داخل الغرفة ليروا رجلاً مسناً، وشاهدوا يده اليمنى مقطوعة، ومن حوله الطفل وقد تطوى عليه وهو يصرخ وينتفض و يتصبب عرقاً، حتى لقد كان وجيف قلبه يصل إلى مسامعهم وكأنما يرون عروقه وهي تتفجر بالدماء الحارة والمرتعبة منهم.

لم يطل بهم التساؤل إذ أشهر الرجل يده اليمنى في وجوههم، وقال لهم: لا تعجبوا من تصرف ولدي، فهذه يدي تروي لكم سر مخاوفه، وراح يروي لهم أنه رجل لديه شيء من العلم وكان يسعى إلى كتابة التاريخ، وشرع فعلاً في ذلك حيث بدأ يسجل أحداث زمانه وما يمر بالبلاد من أسواء وأهوال، وما لبث والي البلاد حينها أن اكتشف فعلة هذا الرجل في تسجيله التاريخ وسرده لأفعال هذا الوالي وأعوانه بالناس في تلك البلدة، فما كان من الوالي إلا أن قطع يد الرجل كي يمنعه من الكتابة، وظل الرجل يعيش مأساته، ويقدم يده المقطوعة شاهدة على ما جرى له.

هذه هي الصورة والقصة المرعبة التي تسببت في ذعر الطفل من منظر اللوح والقلم، وهو الرعب الذي يوحي له بقطع اليد، وكان يتمنى دراسة لا تحتاج إلى كتابة، وعلماً لا يحتاج إلى لوح وقلم، على أن تبقى له يده كاملة ويبقى له سائر جسده من دون قطع.

جرى ذلك وصار فعلاً في فترة من تاريخ منطقة نجد حينما

سادت الفوضى بعد سقوط الدولة السعودية الثانية، وقد سمعت القصة يرويها الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ـ رحمه الله ـ ويؤكد على حدوثها وواقعيتها.

وهي قصة تاريخية تتكرر على مدى التاريخ كله، وإن بصيغ متنوعة، وفي القديم الجاهلي كانت قصة عبد يغوث الحارثي وكان رأس قومه وشاعرهم، ووقع مرة في الأسر وخاف آسروه من قصائده، فما كان منهم إلا أن ربطوا لسانه بنسعة نعل، أي بخيط من الخيوط التي تحاك بها النعال، وهم إذا ربطوا لسانه فإنهم يسلمون من تحرك هذا اللسان بالأشعار، ولو تحركت الأشعار لقالت وفضحت وستسري بها الروايات، وقصة هذه الحادثة مروية بتفاصيلها بقصيدة عبد يغوث الحارثي الشهيرة (ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا)، وهي من عيون قصائد العرب وإحدى مختارات المفضل الضبي في كتابه المفضليات، ومنها بيت القصيد الذي يقول:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

ولقد جرى هذا في زمن الشفاهية حيث لم تكن اليد تكتب ولو كانت يد الشاعر تكتب حينها لجرى له ما جرى للمؤرخ النجدي وقطعوا يده.

تلك ممارسة قديمة ومستمرة، ونحن اليوم نسمع عن اتفاق تاريخي سموه ميثاق الشرف الإعلامي، وهو ميثاق فيه تقنين لليد

واللسان وتلويح بقطعهما فيما لو تجاوزا الحدود، مثلما يجري منع بعض الفضائيات والصحف وحجب الكتابات ومصادرة حرية التعبير والتفكير، هذا في الشرق ولن ترى الغرب سليماً من هذا أيضاً إذ يضعون قانوناً أساسياً حول سرية المعلومات، ولا تباح السرية إلا بعد مرور ثلاثين سنة عليها مع شرط زوال أسباب السرية، وإن لم تزل ظلّت مشروطة بالكتمان، ومن خالفها عوقب معاقبة قانونية تشبه قطع اليد، وإن بصيغة مجازية.

تخاف الثقافات من اليد واللسان إذا تعلمتا كسر السر، وكان طرفة بن العبد قد دفع ثمناً باهظاً لقاء طول لسانه وقد حذره خاله حينما رأى له لساناً مشاغباً وقال له كلمته المشهورة: ويل لهذا من هذا، مشيراً إلى رأسه وإلى لسانه، وهذا ما حدث فعلاً، حيث انتهى طرفة مقطوع اللسان والرأس من سلطان زمانه، وكانت العرب تقول في أمثالها: من ألّف فقد استُهدف، أي صار هدفاً وقدم يده ولسانه واسمه أهدافاً لمن يلوكها بالقطع الحسي أو المعنوي، ونحن نشهد عصر الإنترنت وكيف يجري سلخ أي إنسان يتجرأ على قول غير متفق عليه، أي أنك بين حدي سكين أحدهما سلطوية رسمية والثانية سلطوية شعبوية وفئوية وأنت واقع في إحدى السلطتين غالباً، ومن ذلك التخوين والتكفير والتسفيه، ولكل واحد من هذه الثلاثة صيغته وسماته ونظامه اللفظي والسلوكي. وكلها صيغ نسقية تقطع اليد أو اللسان أو الاسمية حيث تضع اسم المخالف والمختلف في خانة المستهتر به لكي تجري تصفية مقامه ومنع قدراته التأثيرية. ولقد كانوا سابقاً يخافون من سطوة الشاعر ولذا حذرهم المتنبي بقوله: (وعداوة الشعراء بئس المقتنى)، ومن قبله كان الفرزدق يفتك

بخصومه النحويين وقد قال بيته الشهير (ولو كان عبد اللّه مولى هجوته / ولكن عبد اللّه مولى مواليا)، وكل ذلك لأن ذلك النحوي أشار إلى خطأ لغوي وقع فيه الفرزدق فجاءه التعنيف السلطوي لفظياً ولو كان الفرزدق حاكماً لقطع لسان النحوي أو جدع أذنيه كيلا يسمع الشعر الملحون.

هناك نازع ثقافي باتجاه الرأي الواحد والصوت الواحد والرأس الواحد فكرياً واجتماعياً وسياسياً، وكل حالة اختلاف هي حالة مروق، وظل اللسان في زمن الشفاهية هو مصدر الخطر وهو الخط الأحمر، ثم جاءت ثقافة الكتابة لتجعل اليد هي القيمة الثقافية المشاغبة، واليوم جاءت الآلة الجديدة، التي هي (لوحة المفاتيح) لتكون إضافة أخرى للآلتين التقليديتين، اليد واللسان، وفي هذه الأدوات تكمن الألاعيب كلها، لعبة التغالب والتكالب. ففي الوقت الذي يكون اللسان أداة لحرية التعبير فإنه أيضاً أداة للتسلط ومثله الكتابة ومثلهما لوحة المفاتيح، وفي كل منها أبواب للقول والكشف والنقد من جهة، مثلما فيها أبواب للقمع والعدوان اللفظي والثقافي، والذي يظل دائماً ويبقى هو قدرة الإنسان على اكتشاف سبل التعبير واختراع حيل لا حصر لها في ذلك، حتى ليكتب بدمه إذا استعصت عليه الأقلام، وحدث ذلك كثيراً للسجناء ولأناس ماتوا بعد أن سجلت دماؤهم قصتهم وكشفت قتلتهم، مثلما ماتت أيادٍ كثيرة وألسنة كثيرة من قبل سائر أعضاء أجساد أصحابها لأنها نطقت بالممنوع، ولا شك أن أهم تواريخ الثقافة هي قصص المواجهة بين القامع والمقموع، ولقد اختار هاملت في مسرحية شكسبير أن يتقمص صورة المجنون كي يقول ويفضح مؤامرات القتلة تحت لغة

الجنون فيسلم بجسده بدعوى أنه لا يعقل ما يقول، ولكنه في الوقت ذاته أخرج السر من جوفه وخفف ضغط الضمير عليه.

وتظل اليد واللسان كائنين حيوانيين لهما قدرة على فعل الشيء ونقيضه، منفصلين حيناً ومترابطين حيناً آخر.

* * *

وفي ما يلي مجموعة من المقالات حول القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة كانت قد ظهرت تباعا في ملحق جريدة الرياض الثقافي على عدد من الحلقات في أواخر العام 2009 حتى منتصف العام 2010.

الفصل الأول

القراءة: مفاهيم أولية

نقرأ / لا نقرأ

ـ 1 ـ

هل نحن حقا أمة لا تقرأ...؟!

هكذا جاء السؤال بداية[1]، وهو سؤال يقوم على الفرضية ونقيضها، فهو يجمع بين الشك واليقين، مبتدئاً بالشك حيث يقول: هل نحن حقاً، وكلمة (حقاً) هنا تقدم إحساساً أولياً بالشك من صحة ما سيأتي بعدها، والآتي هو الافتراض أننا أمة لا تقرأ. وإني لأحيي هذه الصياغة وبهذه الطريقة للسؤال، حيث إنني سبق أن أعلنت مراراً تردّدي عن قبول الدعوى الشائعة التي تقول إن العرب لا يقرأون، وهي الدعوى التي تم تكريسها بأن العرب لا يقرأون ويجري الانسياق وراء قطعية المقولة، ومن هنا تأتي عندي الفرحة بما أوحى به هذا السؤال المطروح هنا حيث وضع الفرضية بين حدي الشك واليقين مقدماً الشك، مما يفتح المجال للمناقشة ومحاورة الفكرة، وهي فكرة سيكون نقاشي لها منصبّاً على الشك في صحتها، وهذا ما ستطرحه مداخلتي هذه.

---

(1) كان الموضوع مقترحاً من مؤسسة الفكر العربي، وقد طُرح في مؤتمر المؤسسة في بيروت 1-2 أكتوبر 2009.

ولسوف أدخل للموضوع عبر طرح أسئلة عدة هي:

أ ـ ما القراءة؟

ب ـ ما المقروء؟

ج ـ ما العلاقة بين القراءة والثقافة. . . ؟

تلك قضايا لا بد من التبصر بها قبل الجزم بالإجابة عن السؤال المطروح، ولسوف أبادر وأقول إن تصور هذه الأسئلة سيعزز الشكوك في الفرضية وربما يلغيها أو في الأقل يزيح قطعية الفرضية ويجعلها في حدود المتساءل عنه لا المقطوع به.

ـ 2 ـ

ما القراءة (والأذن تقرأ)؟

يجب هنا ألا نغفل أن ما نسميه بالقراءة هو مجرد وسيلة إرسال واستقبال، والكلمة المكتوبة على الورق هي تصوير للمنطوق، وهي صورة تحول الكلمة من صوت مسموع إلى رسم منقوش، وهذا تغيير في صيغة الإرسال، وبدلاً من أن أقول إني جائع بصوتي وعبر حنجرتي فإني أستعين بورقة وقلم وأكتب الجملة بدلاً من نطقها، ولا شك أن نجاح هذه العملية لكي تصل إلى الطرف المستقبل يحتاج إلى شرطين، أحدهما أن تكون له عين مبصرة ترى الصورة المرسومة على الورق، والثاني أن يكون قادرا على فك العلامة المرسومة ويعرف قراءة الكلمات، وهنا سنقول إن المعرّي مثلاً وطه حسين لن يتمكنا من ذلك، كما أن امرأ القيس سيعجز عن استقبال هذه المعلومة مع اختلاف السبب. وهذا مثال بسيط وواضح،

وأوضح منه هو أن نتذكر أن القراءة هنا ليست سوى وسيلة إرسال واستقبال، وأي وسيلة في الدنيا لا تكون غاية في ذاتها، وسيحل غيرها محلها لأداء المهمة، وهذا ما جعل المعرّي وطه حسين ومن قبلهما امرؤ القيس يملكون ثقافة راقية مع فقدانهم لوسيلة القراءة وعدم تمكنهم منها، مما يعني أن القراءة هي مجرد صيغة من صيغ التفاعل وليست هي سر التفاعل ولا تصنع قيمته ولا تفترض خطورته في حال غيابها، والمسألة ليست مسألة أفراد وعينات بشرية محصورة بل هي علامة ثقافية أكبر من أن ننساها أو نتناساها، فالآداب العظمى في التاريخ كله تحدّرت وتناسلت عبر الرواية والمشافهة والحفظ، مثلما تحدرت عبر الورقة والمخطوطات، وليس هذا سوى افتراض أولي ولكنه افتراض كاشف وبنيوي.

ولنا أن نراجع المصطلحات التالية: يسمع / يقرأ / يبصر. وهي مصطلحات ثقافية بعيدة العمق والرمزية، وكل واحد منها يمثل حالة من حالات التكوين الحضاري البشري تاريخياً وواقعياً، حيث كلمة (يسمع) تعبر عن الثقافة السمعية والشفاهية، في حين (يقرأ) تمثل مرحلة الكتابة والكتاب، وتتلوها (يبصر) التي تمثل مرحلة الثقافة البصرية ومرحلة زمن الصورة، وهو زمننا الحالي، وإن كنا نرى أن زمن الشفاهية هو زمن قديم فإن بعضاً منا سيقول اليوم إن زمن الكتاب قد صار أو هو على مشارف الاضمحلال، وإن كنت لا أقول ذلك فعلاً ولا أراه سيقع حقيقة، إلا أنني أرى أن القراءة ليست سوى صيغة واحدة من صيغ ثلاث تمثل وسائل التثقيف والاستقبال، وكلها وسائل كبرى ومفعوليتها عالية جدّاً ومتساوية المفعولية أيضاً.

ولن نجد صعوبة في أن نقول: إن الأذن تقرأ في حالة رجل مثل طه

حسين، وفي حالة أمة كاملة سلف بعض منها ويعيش من حولنا خلق كثير لما يزل كذلك، ومثله من يقرأ عبر الصورة حيث تكون الصورة كتاباً وقد نراها أهم وأخطر من الكتاب. وهذا يجعلنا نعيد تصورنا لمعنى القراءة ولا نحصره بالكتاب وقد رأينا اتساع مجاله وتعدد مفهومه ومفعوليته.

ـ 3 ـ

ما المقروء؟

لكي نخط طريقنا لتصور الافتراض حول هذه الأمة التي تقرأ (أو لا تقرأ) يجب أن نستعرض الواقع العملي حول المادة المقروءة بحسب التجارب المشاهدة، وهنا نستعرض خمس حالات لما نراه مادة مقروءة، وهي:

أ ــ الكتاب الديني

ب ــ التحليل الرياضي

ج ــ المادة الفنية الغنائية والتمثيلية تحديداً

د ــ كتب الغيبيات

هـ ــ كتب الشعر الشعبي

ويقابل ذلك سلباً كتب الفلسفة النظرية والكتب العلمية والأكاديمية وبعض صيغ الإبداع خاصة الإبداع الشعري الذي تراجع بصورة خطرة.

ونحن إذا وضعنا هاتين المجموعتين أمام أعيننا فسنقول بوضوح قاطع إن المجموعة الأولى مقروءة وهي منتشرة على شاكلة كتب

ورسائل ومنشورات صحافية، بل إن الصحف تتوسل بالرياضة والفن ومربعات التنجيم من أجل تنشيط المبيعات.

هذا يجعلنا نقول إن هناك نشاطاً قرائياً في بعض الشؤون ويقابله ركود قرائي في شؤون أخرى، وهنا يتحتّم تعديل الفرضية، لنوجهها نحو النوعية المقروءة بدلاً من كونها سؤالاً عاماً عن القراءة.

ولسوف نرى أن العرب يقرأون ولكن السؤال هو عن نوعية المقروء، خاصة إذا عرفنا أن كتاباً مثل كتاب (لا تحزن) لمؤلفه الشيخ عايض القرني قد باع أكثر من ثلاثة ملايين نسخة في فترة وجيزة، وهي إحصائية شملت مصر واليمن والأردن ومنطقة الخليج العربي، بينما تقف دواوين أدونيس عند أعداد محدودة وضيقة، والأمر هنا هو في خيارات ثقافية للجمهور، مما يجب أن يكون موضع سؤال وتفكر.

سنظل في هذه الورقة نقول إننا أمام سؤال عن نوعية المقروء ولسنا أمام سؤال عن القراءة بشكل مطلق.

ـ 4 ـ

ما العلاقة بين القراءة والثقافة؟

إن سؤال العلاقة في ما بين القراءة والثقافة هو سؤال يمس المتغيرات المعرفية على مستوى ما يراه المجتمع ثقافة وما يراه ضرورياً، وما هو عكس ذلك، ولا شك أننا مررنا بزمن كان الشعر فيه هو العلامة الثقافية الأكبر، وكان من ديدن الخلفاء الأمويين والعباسيين تربية أبنائهم على لغة الشعر وذائقة الشعر والأخلاقيات

الشعرية، وكانت ثقافة الدواوين العليا للخليفة وللوزراء والوجهاء هي الشعر، استماعاً للمديح أو رواية للقديم، أو تطريباً بالشعر ـ كما هي شهادة كتاب الأغاني ـ وهذا عزز مكانة الشعر كعلامة ثقافية، وورثنا نحن هذا المعنى حتى صار المعهود الثقافي أن من يحفظ المعلقات وحِكَم زهير والمتنبي والمعري، ثم أخيراً حفظ شعر شوقي هو المثقف، وكان ذلك علامة ثقافية يحرص من يملكها على إظهارها كاستعراض ثقافي لافت. غير أن الأمر تغير الآن ولم تعد هذه السمة علامة ثقافية ويندر أن تراها بين الجيل الشاب، ولم يعد الشعر علامة ثقافية مثلما كان من قبل. ومع تراجع مقام الشعر تراجعت مقامات ثقافية أخرى من مثل النقد ونظرياته ومعها الأساليب البلاغية والخطابية، وتبعتها خطابات أخرى تماثلها في التكوين والتبويب، وهذه كلها أصابها نوع من التراجع في التسويق والشيوع حتى وصلت إلى مراحل مخيفة في ضيق دوائرها. وفي مقابل ذلك حلت خطابات أخرى لتكون في صدارة الاهتمام والاستهلاك اليومي السريع، وجاءت فكرة الأفضل مبيعاً كاستجابة لمتطلبات السوق الثقافية، ومن أهم شروطها السهولة والمباشرة والصراحة، وكل خطاب اجتماعي أو سياسي أو ديني ينطوي على شروط الصراحة والمباشرة والسهولة يجد صداه بسرعة فائقة، وسنرى أن هذه هي سمات ثقافة الصورة ـ كما سنحددها لاحقاً في هذه الورقة ـ، وهذه مسألة تمس المتغيرات المعرفية والذوقية في حياة البشر وعلاقات التواصل في داخل المجتمعات وفي ما بين الفئات.

لقد تعزز بشكل أو بآخر مفهوم ثقافي عام وحديث يفترض أن قراءة الكتب هي العلامة الثقافية، بحيث إن النقص فيها أو التقليل

منها يصبح مؤشراً على ارتداد ثقافي، ولا شك أن أصحاب المهنة كانوا وراء تغذية هذا التصور، فالناشرون وباعة الكتب ومعهم المؤلفون ظلوا يردّدون بلا هوادة القول بأن العرب أمة لا تقرأ، وأن أمة اقرأ لا تقرأ، وحدث في عام 1999 في معرض بيروت للكتاب أن وضعت إحدى دور النشر العربية كفناً صغيراً على مدخل جناحها وقالت إنه كفن القارئ العربي ميتاً، وركزت تغطيات الصحافة على هذا المنظر وصار نادرة من نوادر الأقاويل.

إن الربط بين القراءة والثقافة حتى لتكون هذه علامة على تلك لهو ربط قسري ويتجاهل حقائق جوهرية حول مصادر الثقافة، وأولها الرواية الشفاهية التي كانت مصدراً تاريخياً شاملاً وكلياً وله مفعول جبار في القديم مثلما له مفعول حديث في زمن الإذاعات والمسجلات والمرويات الصوتية. ثم جاء زمن الصورة وثقافة الصورة، كما سنحدد في الفقرة التالية.

ـ 5 ـ

الصورة كتاب

تحولت البشرية تحولاً كبيراً حينما اعتمدت الكتابة وسيلة للثقافة، وكانت الشفاهية هي الوسيلة المطلقة، وجاءت الكتابة لتحتل المركز الأول ثقافياً وتزيح الشفاهية إلى الهامش، وحدثت مرحلة وسط في ما بين الشفاهي والكتابي، وهي مرحلة التدوين حيث جرى رصد المنطوق وتحويله إلى مكتوب (مدون)، ثم انفتح الزمن للكتابة لتصبح الورقة والقلم محل اللسان والذاكرة، ومر زمن

طويل تعودت فيه الثقافة على هذه الوضعية، حتى جاء زمن الفضائيات، وهو زمن ورث كل التحولات المرحلية في الإذاعة والسينما، ومرحلة التلفزيون الأولى، ومن هذه الوراثة جاءت ثقافة الصورة لتعلن تحولاً كبيراً آخر في حياة البشر، وهو التحول الثاني تاريخياً وحضارياً من بعد حدث الكتابة التي أزاحت الشفاهية، ولا شك أن ثقافة الصورة قد أعادت كثيراً من خصائص الشفاهية في المباشرة والسرعة والتفاعلية، وغيرت من أنظمة الاستقبال التي رسختها الكتابة، فالكتاب صامت ومطلق والمؤلف في الكتاب سلطة متعالية، بينما القارئ للكتاب سلبي وهو مجرد مستقبل سالب، وليس بينه وبين المؤلف صلة من أي نوع فهو لا يراه ولا يسمعه ولا يستطيع محاورته، ومعظم المؤلفين هم أموات أو بحكم الأموات من حيث غيابهم المطلق، والكلمة في الكتاب هي صورة جامدة، وهذه مفارقة كبرى مع الشفاهية حيث إن الكلمة الشفاهية حية وقابلة للتبدل والتغير والتفاعل، ويكون المستقبل فيها إيجابياً وفعالاً، مع اشتراك لغة الجسد في صناعة الرسالة وصياغة التواصل، وفيما بين الشفاهية والكتابية تحولت الأنماط الثقافية ومالت لمصلحة الكتابة وقيم النص المكتوب، وتولد عن ذلك أعراف ونظم معرفية منها وجود الوسطاء بين المؤلف والقارئ وهم الناشرون والموزعون من جهة، ومن جهة أخرى جاء وسطاء آخرون من الشراح والمفسرين والنقاد وعارضي الكتب، وهم فئات شكلت مهناً ثقافية كبرى على مر التاريخ.

وسط هذا كله جاءت الصورة لتقدم ثقافة مختلفة تلغي فيها ـ أول ما تلغي ـ وظيفة الوسطاء، فالصورة تأتي مباشرة ولا تحتاج

إلى شارح ولا مفسر ولا مترجم، ولكنها تكتفي بقيمها المباشرة، وهي قيم تفاعلية وحية وإيجابية، والمستقبل فيها يتفاعل عبر العين والأذن مباشرة وتلقائياً، وهي تعيد له موروثه الأنثروبولوجي القديم في المشافهة ولغة الجسد والتفاعلية.

هذا أمر، ومعه أمر مصاحب وهو ظهور رسائل الجوال ورسائل الفضائيات، وشاشات الإنترنت، وهي كلها صيغ ثقافية جديدة تتيح فرصاً خيالية للناس لكي يمارسوا أنواعاً متجددة من الوسائل المعرفية الرخيصة أو حتى المجانية، مع ما فيها من حرية مطلقة وسرعة في الاستقبال واختصار للوقت والجهد وتوفير للمال.

ومن المهم هنا أن نقول إن هذه صيغ ثقافية ومصادر للمعرفة تكشف أن القراءة التقليدية عبر الكتاب ليست هي المعيار على ثقافة مجتمع ما أو عدم ثقافته، وكما كانت الثقافة الشفاهية قادرة على خلق شاعر عبقري مثل امرئ القيس ولم يقصر به عجزه عن القراءة والكتابة، فإن ثقافة الصورة تستطيع أن تخلق أجيالاً مثقفة ثقافة عصرية، وهي ثقافة نوعية ومتطورة بكل تأكيد، وإن اختلفت بالضرورة عما هو متعارف عليه تقليدياً في تعريف المثقف. والصورة كتاب أيضاً مثلما هي مصدر ثقافي لا يقل ثراء عن الكتاب بمفهومه التقليدي، وهي لذلك من أهم مصادر التثقيف، ولن نشك بكونها مصدراً مهماً وفاعليته عالية جدّاً ولها من الأثر أضعاف ما للورقة المنقوشة بالكلمات الجامدة.

— 6 —

المقارنة الثقافية

أشير هنا إلى عدد من التصورات الواهمة التي تعرّي حواراً كهذا الحوار حول سؤال القراءة عربياً، وهي كالتالي:

أ ـ تجري المقارنة مع الغرب عادة وتجري الإشارة إلى ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب، وهذا أمر يتم من باب التبكيت على العرب حينما تجري مقارنة الأرقام، والحق أن ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب ليست علامة على القراءة الجادة، ولكنها علامة على المكاسب المادية وعلى الاستهلاك السطحي للكتاب، وتلك النوعية من الكتب هي كتب ساذجة وبسيطة وليست كتباً في المعرفة ولا في الثقافة العليا ولا في الثقافة الجادة، وهي إلى الاستهلاك وصناديق النفايات أسرع منها إلى العقول. وكثيراً ما يترك الناس هذا النوع من الكتب على كراسي الانتظار في المطارات وعلى مقاعد الطائرات والقطارات للتخلص منها بعد التسلي بها لساعات، وهي كتب تباع عادة في أكشاك المطارات ومحطات السفر بعامة، وتصاحب الجرائد اليومية في مواقع بيعها، أي أنها كتب يومية كالجرائد اليومية، ولغتها ومستواها هي لغة الصحافة ومستوى الصحافة، وهذه مسألة لا بدّ من الأخذ بها وقت المقارنة، لكيلا نخلط بين الجاد والبسيط.

ب ـ حينما نقارن بين العرب والغربيين في مسألة الكتب، فلا بد أن نستذكر وضع وحالة الكتب المسمّاة الأكثر مبيعاً وهي التي تكون عادة في رأس المقارنة، وكذلك لا بدّ أن نستذكر الحال

الاجتماعية الغربية، وهي حال انفرادية، والفرد هناك هو كون قائم بذاته، ويندر التفاعل الاجتماعي المباشر بين البشر، وإذا ركب المرء في طائرة أو في قطار وحافلة فإن الصمت يعم بين الركاب ويندر أن يدخل راكب وآخر في محادثة تقطع عليهما مشوار السفر، ولهذا يلجأ الناس للكتب البسيطة والمسلية لتزجية وقتهم كبديل عن المحادثة، وهذا ما صنع موضة الكتب الأكثر مبيعاً، بينما الطبع الشرقي هو تزجية الوقت في الأحاديث بين الناس المتعارفين وغير المتعارفين، وإذا جمع الناس عندنا مكان نشأت بينهم لغة في التخاطب والتواصل مباشرة، وهذه حالة تمييز بين مجتمع وآخر فرضت عند الغربيين شراء الكتب الميسرة لقيام أسبابها الاجتماعية والحياتية، بينما لم تنشأ عندنا نفس الأسباب، فاختلفت الحالة هنا عن هناك، وليست المسألة مربوطة بحب الكتب وحب الثقافة، وليس في نوعية الأكثر مبيعاً ثقافة ذات شأن، وهي ـ فحسب ـ ضرورة اجتماعية.

وفي المقابل فإن التخاطب بين البشر هو ضرب من ضروب التبادل الثقافي والمعلوماتي مثلما هو إمتاع وتسلية وتزجية وقت، وهو عندنا من نتائج التفاعل البشري بينما يطلبها الأوروبيون عبر الكتاب إذ لم تتيسر لهم عبر البشر.

.

ج ـ لا شك أننا نضجّ بالشكوى من تراجع مقام الشعر بين الناس، والأمة الشاعرة لم تعد تعير الشعر مكانة عليا كما كانت في سابق أزمنتها كلها، وهذه ظاهرة لا تخصنا وحدنا، ولقد جرى قبل بضع سنوات أن قامت جامعة أوكسفورد بإلغاء جميع عقود النشر المتفق عليها سلفاً مع عدد من الشعراء الإنكليز وتحملت الجامعة

غرامات الإلغاء، وذلك لأن دار النشر الجامعية الخاصة بالجامعة لاحظت عزوف القراء عن الشعر مما حول المنشورات الشعرية إلى مكدسات في مستودعات الجامعة، وكانت الخسائر هنا كبيرة مع فقدان الدور الطليعي للجامعة في نشرها لأعمال لا تسويق لها، وهذه قصة كبيرة ومشهورة تكشف عن التغير الثقافي الهائل وعن مبلغ خطورته مما أدى بالجامعة إلى تصرف جريء كهذا. ونحن هنا نقول ذلك للتعرف على الوضع الكوني بعامة كيلا نظن بأنفسنا وثقافتنا ظنوناً غير واقعية ونكون مهولين أكثر منا باحثين وملاحظين.

ــ 7 ــ

التفاعل الثقافي

من الملاحظ ثقافياً أن الناس قد تجاوبوا مع ثقافة الصورة بصيغة عريضة وسريعة ومغرية، وهذا مؤشر على ما تضمره النفوس من مخزون أنثروبولوجي للحس الشفاهي لدى البشر، وكأن البشر كائنات شفاهية أكثر منها أي شيء آخر، وهذا ما يجعلنا نأخذ بعين النظر ما كان الناس يمارسونه وقت سيطرة الكتاب حينما كان الوسيلة الأهم في تداول المعرفة، وكانت الممارسات تجري دوماً لتحويل الكتاب إلى مادة صوتية، عبر تحويل الروايات إلى مسرحيات ممثلة، وإلى أفلام مصورة، وعبر الأمسيات الشعرية والمحاضرات والندوات والنقاشات حول الكتب، وكان الناس يكتشفون فروقاً جذرية في فهمهم للمكتوب حينما يتحول إلى منطوق أو مصور، ولقد كان هذا مؤشراً إلى العلاقة الذهنية بين البشر والصوت، وبين البشر والصورة الحية، وكون هذا أكثر مدعاة للفهم والتفاعل. ولذا، فإن الصورة

المتلفزة حينما جاءت لتعمّ الكون الاستقبالي لاقت استجابة سريعة وتفاعلية معها حتى صار ذلك بمثابة العودة إلى الأصل الثقافي البشري، وتحول التواصل بين الناس ومصادر الثقافة ليأخذ هذه الصيغة الحديثة للشفاهية، وهذا تطور يجري ضد مصلحة الكتاب.

وإن كنا نقول بهذا فإننا نعززه بالقول إن ثقافة الكتابة لكي تحافظ على قدراتها التنافسية لا بدّ لها أن تتمثّل خصائص ثقافة الصورة، وهي خصائص واضحة المعالم، ومنها المباشرة والسرعة والتلوين والدقة والإثارة، وهي سمات تفاعلية نجحت مع النصوص التي تنطوي على هذه الصفات أو بعضها، ولقد كنا نشهد كيف أن محمود درويش يستقطب حضوراً كاملاً في كل مرة كان يلقي فيها أمسية شعرية، وذلك لما في خطابه من خصائص تشبه سمات وخصائص الصورة، وسنقول شيئا من هذا عن أمسيات الشعر الشعبي، والاحتفاليات الثقافية، ، والروايات، وهي صور ثقافية متحركة، عرفها ما يسمى بالوعّاظ الجدد واستثمروها بمهارة جاذبة، وهذه كلها أمثلة واقعية تكشف أن ثقافة الصورة تحفّز الاستقبال لأنها تحفر باتجاه رغبات قديمة مخبوءة داخل النفس البشرية في حنين الذات باتجاهها إلى الجذر الإنساني العميق في المشافهة والمحادثة والتفاعل الحي ومباشرة الفعل، ما يفرض علينا التفكير بصدق عن مصادر المعرفة ونوعية المعرفة، وكيفية توصيلها، وليس للكتاب إلا أن يلعب لعبة التغشيش، فيسترق النظر للصورة ويحاول أن يحاكي بعض خصائصها لكي يبقي على موقعه بين الناس. وليس بالصعب أن نتذكر أن أمسيات محمود درويش تحظى بحضور جماهيري كبير معظمه ليس من أهل التخصص الشعري الحداثي، ولو كانوا كذلك لرأيناهم

مثلاً عند أدونيس، والذي يمكن أن نقوله هنا هو أن نصوص درويش ترتبط ارتباطاً عضوياً بالصورة الحيّة للحال الإنسانية الفلسطينية، وهي صورة تحضر فيه ومن حوله حتى صار يجسدها حتى في نصه الذاتي والغزلي، ويحيط به وبشعره هذا الحس الحيوي المتفاعل عقلياً وعاطفياً حتى ليكون صورة متحركة وفعالة في النص وفي الناس.

وسنرى أيضاً مثالاً آخر مع الشعر الشعبي الذي يستقطب جماهير عريضة ليس لنا أن نحصرها بالثقافة الفصيحة، وهذا الشعر ينهل من اليومي ومن الصورة المغناة والأرشيف الأسطوري للذاكرة الشعبية، وهو ذو تركيبة شفاهية وصوتية تقوم على التفاعل والحركات التمثيلية ولغة الجسد وتستحضر الشارع اليومي والمباشر بصورة تلقائية.

وهذا يفضي بنا إلى وضع تصوراتنا مرة أخرى نحو الثلاثية الاصطلاحية: (يسمع) (يقرأ) (يبصر)، وما تحمله كل واحدة منها من بعد ثقافي وحضاري وتحولات مرحلية كبيرة وعميقة الدلالة، حيث تتولى البشرية تبديل علاقاتها مع ذاتها ومع محيطها بحسب الوسيلة الثقافية المستخدمة، مما يشكل تنويعاً في المصادر الثقافية. ولسوف أقف وقفات على عدد من الكتب التي حققت مبيعات عالية بمثال عربي ومثالين أمريكيين للتعرف على خصائص ظاهرة الأكثر مبيعاً وأبعادها، وذلك في مقالات تأتي بعد إجازة الحج ـ إن شاء اللّه ـ، وفي ما بين ذلك سأقدم مقالتين تخص أمور الكتاب والاستقبال الثقافي.

اقرأ / الكتاب
القيمة الرمزية للثقافة العربية

* الكلمة التدشينية للقاء الثقافي الذي نظمته جامعة أكسفورد بالاتفاق مع جائزة الشيخ زايد للكتاب، والمنقول هنا هو الترجمة العربية للكلمة الافتتاحية لذلك اللقاء في يوم الخميس الخامس من نوفمبر 2009.

* أيتها السيدات والسادة، طاب مساؤكم، شكراً لجائزة الشيخ زايد للكتاب التي جمعتنا في هذا اللقاء، وشكراً لكم في جامعة أكسفورد على الترحاب الكريم، وأنا أمامكم تربطني بهذه الجامعة قصة طريفة، فقد جئت إلى الجامعة عام 1972 لإجراء مقابلة بعد أن تقدمت بطلب لإكمال دراستي العليا هنا، وحينما دخلت إلى المكتب اكتشفت أنني أمام البروفيسور مصطفى بدوي، وكنت أعرف عنه الكثير لكنني أقابله لأول مرة، وبعد ساعة من التحدث أظهر لي ترحيبه بي لأكون أحد تلامذته، وكان ذلك موقفاً كريماً منه ولا شك، غير أنني حينما خرجت من المكتب انتابني شعور حزين إذ

تصورت نفسي طالباً عربياً مع أستاذ عربي، وعن موضوع عربي، وهالني أن أرى حالي وقد قطعت نصف الكرة الأرضية لأنتهي هذه النهاية، لقد كنت مفعماً بالتصورات حينها عن المستشرقين والاستشراق، وكنت أريد حقّاً أن أعيش حالة علمية أحتك فيها مباشرة مع هؤلاء، ولم أستظرف فكرة أن يشرف علي رجل عربي وهذا ما جعلني أغير وجهتي وأذهب إلى أدنبره ثم إلى إكستر حيث درست على يد مستشرق هولندي هو البروفيسور غوتيه ينبول. على أنني أشير الليلة إلى الدكتور بدوي الذي ارتبط اسمه بهذه الجامعة، وأقول إنه أستاذ عظيم وعالم جليل وقد توطدت علاقتي به كثيراً، وله في نفسي مقام رفيع، وما قصتي هذه إلا مسألة خيارات وليست مسألة تمييز.

هاأنذا أعود إلى أكسفورد بعد سبع وثلاثين سنة، بترتيب كريم منكم ومن جائزة الشيخ زايد، ويفترض بي أن أتحدث عن الثقافة العربية لمدة لا تزيد على عشر دقائق إلى ربع ساعة، وهي مهمة صعبة أن أختزل تاريخاً عظيماً في هذه الدقائق وقد قررت أن ألتقط بعض جمل ذات بعد رمزي لكي أستخلص منها صورة عن الأبعاد الكلية لهذه الثقافة.

ـ 1 ـ

هناك علامات أولية يأخذها العرب مأخذ فخر بما أنها تدل على قيم ثقافية ذات مفعولية عالية، وأولها هو نزول الوحي على الرسول محمد (ص) تحت مسمى (الكتاب)، فالذي جاءه من ربه هو ما صار يسمّى كتاب اللّه، وهو وصف القرآن لنفسه وهي الصفة

الملازمة له، ثم إن أول كلمة نزلت في هذا الكتاب هي كلمة (اقرأ).

هنا تأتي الكلمتان (الكتاب واقرأ) لتكونا علامتين رمزيتين عاليتي القيمة، وقد صنع هذا عالماً راقياً من الخيال الثقافي ومن التصرف العملي، ولذا صرنا نقرأ حكايات كثيرة تستند إلى هذين المعنيين، الكتاب والقراءة، حتى صارت جملة (اقرأ الكتاب) جملة ثقافية تحمل تصوّراً معرفياً به نقرأ الواقعة الثقافية العربية في لحظات تكوينها وفي أوج ازدهارها، وحينما وقع عدد من الأسرى من غير المسلمين في يد جيش المسلمين كان اقتراح الرسول عليهم للحصول على فك أسرهم هو أن يعلِّموا عدداً من المسلمين القراءة والكتابة، وهذا تطبيق أولي وعملي للمعنى الرمزي للكلمتين الحاملتين للرمزيات الأولى، ومثل ذلك ظهور عدد من المسلمين الأوائل بصفتهم كتاب الوحي. وهي صفة عالية الرمزية ومن تحققت له صارت علامة تلحق سيرته وتميز تاريخه، ومسألة تحرير الأسرى ثم اختيار رجال لكتابة الوحي هما أول تطبيق عملي لجملة: اقرأ والكتاب، أو: اقرأ الكتاب.

ـ 2 ـ

كان ذلك في مطلع التأسيس الثقافي العربي بصيغته الإسلامية المبكرة، وهو ما صرنا نشهد تحقيقه عملياً وثقافياً في العصر الأموي ثم في العصر العباسي، أي في فترة القرون الثلاثة الأولى للتاريخ العربي، أي القرن السابع وما بعده، حيث نشط الفعل الثقافي بعد استقرار الدولة العربية وجاءت الترجمة بشكل مكثف وبدعم من

الحكام والوجهاء، وجاء التأليف في كافة العلوم الأدبية والعلمية والدينية، وظهرت طبقة المثقفين والمترجمين والمؤلفين والشعراء والرواة، واتسعت الدائرة بطلب من السلطة الحاكمة وبدعمها، وكان من ديدن السلاطين انتقاء أفضل المثقفين لتعليم أبنائهم من أطفال القصور، وتهيئة هؤلاء الأبناء للحكم معتمدين على ثقافتهم ومعرفتهم، وهذا أمر يتم تحت تأثير المعنى الرمزي الأول حول مفهوم (الكتاب واقرأ)، أي أنه تصور عملي للجملة الثقافية: اقرأ الكتاب.

ـ 3 ـ

تشهد الكتب التي بين أيدينا الآن من مثل (كتاب الأغاني) على الدرجة العالية من المزيج الثقافي المتوفر في المجتمع العربي حين ذاك، ونحن هنا نتكلم عن القرن السابع حتى القرن التاسع، وهي قرون ثلاثة شهدت ظهور العرب كقوة سياسية وكقوة ثقافية وكقوة حضارية، و (كتاب الأغاني) يتكوّن من عشرين مجلداً، وكتبه صاحبه في الأصل ليسجل مائة لحن غنائي، وهي الألحان التي اختارها من بين المئات ليكتب عبرها تاريخ الغناء وثقافة الغناء في عصره، ولكنه لم يكتف بذلك، وقد أحس أن الثقافة كل لا يتجزأ، فالغناء يقوم على ألحان موسيقية وعلى أصوات بشرية، ومع كل أغنية هناك نص شعري وهناك جمهور مستمع وهناك تاريخ لهذا اللحن ولهذا النص ولهؤلاء البشر، ولهذا راح الأصفهاني (مؤلف الكتاب) ليدخل ويدخلنا معه في رحلة طويلة وعميقة عبر التاريخ القديم ومع التاريخ الحاضر أمامه ليكتب عن المجتمع في مدينة

بغداد بكل أطيافه، وجاءت حكايات كتاب الأغاني لتكون حكايات ثقافية تجمع بين الشعر والغناء والقصص الاجتماعية والممارسات العلنية والشخصية للناس بكل فئاتهم بدءاً من السلاطين إلى المطربين والمطربات رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً، وظل هذا الكتاب سجلاً اجتماعياً وثقافياً يكشف عن التنوع الثقافي والاجتماعي ويكشف ذوق المجتمع ومستواه الحضاري مثلما يكشف عن منزلة الكتاب في الوسط الاجتماعي، مما جعل فئة تنشأ بوصفهم فئة المؤلفين ونخبة المثقفين والانتماء إلى هذه الفئة يرفع من مقام المرء ويعزز منزلته الاجتماعية.

ـ 4 ـ

ومن قبل كتاب الأغاني كانت المقولة العربية التقليدية بأن (الشعر ديوان العرب)، وهي مقولة تشير إلى مرحلة ما قبل الإسلام حيث كانت الأمية هي السائدة، ولم يكن في مكة سوى نفر قليل يجيدون القراءة والكتابة، وقد أحصاهم أحد المؤرخين بما لا يزيد على عشرين رجلاً، وذلك في مدينة مثل مكة المكرمة، وكانت صفتها في ذلك الوقت القرية أو أم القرى، وذلك في القرن السادس، ولعل عدد سكانها لا يزيد على أربعة آلاف نسمة، كلهم أميون ما عدا عشرين منهم ـ بحسب البلاذري ـ وهم عيّنة على سائر القرى العربية في وسط شبه الجزيرة العربية، ولكن الحال تختلف في ممالك الجنوب وممالك الشمال حيث تشير الحفريات الآثارية إلى أن المجتمع العربي هناك كان يعرف الكتابة بصورة واسعة، وبعضها يشير إلى نصوص ظهرت قبل الميلاد بألفي سنة، وتشير إلى مجتمع

يكتب ويقرأ بكل فئاته نساء وأطفالاً، إضافة إلى لغة الأدب والتجارة ولغة الطقوس الدينية، كما كان عرب مكة المكرمة يعلّقون نصوصهم الشعرية مكتوبة على ألواح كبيرة تستند إلى جدران الكعبة.

ولكننا مع هذا نلاحظ أن السمة الغالبة هي هيمنة الشعر المروي والمنطوق شفاهياً مما يعزز شفاهية الثقافة، وهذا ما يجعل الشعر هو الأرشيف المسجّل لكل ما هو قيمة ثقافية عربية، مما وضع الشعر في موضع رفيع عند العرب، وظلت كلمات من مثل العرب أمة شاعرة هي واحدة من أهم ما يصف به العرب أنفسهم، ولقد بلغ الشعر منزلة ثقافية عالية الرمزية حتى إن ابن عباس، وهو ابن عم الرسول (ص) نصح مفسري القرآن الكريم بالعودة إلى الشعر العربي للاستعانة به لفك دلالات معاني الكلمات القرآنية. وظل الشعراء في حظوة متقدمة عند السلاطين. ولذا كان من أهم أهداف الحركة التأليفية في العصر العباسي في القرن السابع هو جمع الشعر القديم ورصده في كتب وظهرت طبقة من المدوِّنين اشتهرت بهذا العمل وتخصصت فيه ولا تزال الكتب المجموعة في تلك الفترة قائمة بيننا الآن، وهي مراجع ثقافية معتمدة وبالغة الأهمية، وهي بحق سجل ثقافي وأرشيف حضاري وذوقي أيضاً، وتخرجت على صفحاتها أجيال من الشعراء على مدى التاريخ حتى يومنا هذا.

ـ 5 ـ

يحتلُّ الشعر مكانة عالية في الثقافة العربية حتى إنه ليطبع الشخصية العربية ذاتها وإذا قبلنا المقولة القديمة في أن الشعر ديوان العرب، أي سجلّهم الثقافي فإنه أيضاً يمثل المرجعية الذهنية

للشخصية العربية، فمن المتصور العام أن كل رجل وامرأة من العرب لا بد وأن يمر في عمره بمرحلة من كتابة الشعر، وهكذا بدأ ويبدأ كل كاتب حتى طه حسين ونجيب محفوظ، وهما اللذان جرّبا قول الشعر، ثم اكتشفا طرقاً أخرى لهما، وهي ظاهرة عامة وشاملة، حتى إنك لتجد الخطب السياسية وكتابات الدواوين وقد طغى عليها الشعر، وذلك ملموس في خطب الخلفاء مثلما هو ملموس في خطب الزعماء العرب المعاصرين وفي لغة الأحزاب مثلهم مثل الكتاب، بل إننا قد نقرأ السلوك العام على أنه تجسيد شعري.

وفي مقابل ذلك كانت الثقافة العربية تزخر بالخطابات السردية، ولكنّ السرد ـ مع كثرته وشيوعه ـ ظل في مقام ثانوي مقارنة بالشعر، ولقد كانوا يقولون عن (ألف ليلة وليلة) إنه كتاب لا يصلح إلا للنساء والأطفال وصغار العقول، وظل هذا الكتاب خارج المتن الثقافي وفي إطار الشفاهي، ولقد تنقل في أزمنته الأولى بين البلدان والألسنة من دون اهتمام بضبطه وتدوينه، وحينما تم تدوينه جاء غفلاً من كاتبه أو كاتبته، ولم ينتسب النص لاسم معين، تحقيراً له وتقليلاً من شأنه، في حين إن الشعر قد دخل إلى مرحلة التدوين مبكراً، وكانت أسماء المدونين تتوِّج أغلفة الكتب، وكانت مهنة التدوين الشعري مهنة نبيلة، وأسماء المدونين تبرز في مقدمة الأسماء الثقافية في التاريخ العربي، وكان الشعراء يهتمون بأمر كتابة شعرهم وشرح قصائدهم وتسويقها عبر الرواة، ويستعينون بأكابر الأدباء واللغويين لأداء هذه المهمة كما كان يفعل المتنبي ومن قبله من كبار الشعراء، وهي مزيّة يختصّ بها الشعر دون السرد، والأخير ظلّ محتقراً، وظلوا ينظرون إليه على أنه خطاب مؤنث بينما الشعر هو

خطاب الأكابر من الرجال وعليّة القوم، ولا شك أن نصوصاً سردية كثيرة وعظيمة قد ضاعت علينا بسبب عدم اكتراث المثقفين في تدوينها، والأمة التي دونت تراثها كله بما في ذلك معارف الأوائل في أنساب القبائل وأخبارها وجغرافية الأرض والأماكن وكذلك علم الفراسة والفلك والنجوم، وقصص الشعراء والأمراء وخطب البلغاء، هذه الأمة نفسها وهي أمة (اقرأ الكتاب)، لم تعر اهتماماً لتدوين السرد، وإذا جرى تدوين السرد فإنه يجري على استحياء، ونحن لا نعرف الذي قام بتدوين سيرة عنترة ولا أبي زيد الهلالي، مثلما لا نعرف من روى وسجل كتاب ألف ليلة وليلة.

لقد احتجنا إلى بضعة قرون لكي نعيد للسرد قيمته ونمنحه موقعاً ثقافياً محترما، وذلك مع ظهور فن الرواية الحديث، وبروز أسماء الروائيين، وهذا أثّر على الموقف من القصص والحكايات، فجاء مثقفون وصاروا يجمعون الحكايات من أفواه الناس ويكتبونها في كتب تحمل أسماء المدونين ولم يعد ذلك عيباً يتستّرون عليه، ولم تعد تلك النصوص خاصة بصغار العقول والأطفال، بل صارت نصوصاً تقرأ في العلن وتحتل مقاماً عالياً.

وربما يكون الزمن قد دارت دورته ضد الشعر، إذ الواضح الآن أن السرد، والرواية بخاصة، قد صارت تستأثر باهتمام القراء أكثر من الشعر، وبدأت منزلة الشعر تتراجع في مقابل ظهور ثقافة الصورة من جهة وجماهيرية الرواية من جهة ثانية، والتيار يتّجه ضد الخطاب البلاغي عموماً وعلى رأسه الخطاب الشعري، وتحتل الصورة والعالم الرقمي موقعاً أعلى من أي خطاب ثقافي آخر، والأمة الشاعرة لم تعد تجد في أجيالها من يعير اهتماماً كبيراً للشعر، وإذا

كان الخلفاء قديماً يرسلون أبناءهم إلى البادية العربية لتعلم لغة الأعراب وأشعارهم فإن شباب هذا الزمن ربما يجهلون حتى مجرد أسماء الشعراء فما بالك بحفظ نصوصهم.

ـ 6 ـ

لئن كانت الثقافة العربية تقوم على مقولة: اقرأ الكتاب، وتمثل لها هذه المقولة قيمة رمزية عالية ثقافياً وينبني الخيال العربي على هذا التعبير فإن جائزة الشيخ زايد قد تأسست على هذا المعنى، وهي جائزة عن الكتاب وللكتاب، وهدفها تشجيع التأليف والاحتفال بالإبداع والتأليف الابتكاري، وهي هنا تسير في مسار التصوّر الثقافي الأصلي لرمزيات الثقافة وتفاعليتها.

الفصل الثاني

رأسمالية الثقافة: الأكثر مبيعاً

لا تحزن (ثقافة الاستشفاء)

ـ 1 ـ

في منتصف عام 2005 وجدت نفسي أنطلق نحو مكتبة العبيكان لأشتري كتاب (لا تحزن) للشيخ عايض القرني، هناك وجدت الطبعة التاسعة عشرة من الكتاب، وقد كتب الناشر على الغلاف أنه باع أكثر من مليون نسخة، ولم يفت وقت حتى رأيت الناشر للكتاب يضع إعلاناً كبيراً في جريدة الرياض (2/ 5/ 2006) يهنئ فيه الشيخ على حصوله على جائزة (المؤلف العربي الأول)، ويشير إلى أن كتاب (لا تحزن) قد حقّق مبيعات وصلت إلى مليون ونصف مليون نسخة، ثم حصل أن تقابلت مع الناشر في معرض أبو ظبي للكتاب بعد شهور، وسألته عن حال الكتاب فقال لي إنه تجاوز ثلاثة ملايين نسخة وأن مبيعاته في مصر واليمن وبلدان المغرب العربي لا تقل عنها في المملكة والخليج.

كل هذا وقد كنت من قبل قد أثرت سؤالاً عن هذا الكتاب طرحته على طلبتي في الجامعة، وقد جاءتني الإجابات معبّرة جدّاً، فمن مجموعة طلاب عددهم اثنان وخمسون طالباً وجدت أن خمسة وثلاثين منهم قد سمعوا عن الكتاب أما من سمع وقرأ فكانوا ثلاثة

وعشرين، على أن القراءة تراوحت بين كامل الكتاب وبعضه أو تصفحه، وتبعاً لذلك استعنت بأستاذتين فاضلتين كانتا تدرسان عندي في مرحلة الدكتوراه، وهما أمينة المسهر وأمل الخياط التميمي، ولقد تولتا مشكورتين رصد وضع الطالبات مع الكتاب، ولقد اكتشفت أن أمل قد سبق لها أن طرحت سؤالاً على طالبات كلية البنات بالدمام ووجدت أن سبعين طالبة قد سمعن بالكتاب، ومن بينهن خمسون قرأن الكتاب ما بين كامل أو أجزاء منه، والرقم مستخلص من فصل عدد طالباته ثمانون طالبة، أما أمينة فقد وجدت أن ثمانية وأربعين بنتاً قد سمعن بالكتاب ولكن اللواتي قرأنه كن ست عشرة بنتاً فقط، وذلك من فصل تعداده ستاً وستين، وكذا كانت النتيجة مع ابنتي غادة التي وجهت سؤالها إلى فصل في كلية اللغات في جامعة الإمام وكانت النتيجة أن خمسا وثلاثين بنتاً من بين ثمانٍ وثلاثين سمعن بالكتاب، واللواتي قرأن لم يزدن على أربع عشرة طالبة.

هذه إحصاءات لا شك أنها ستكون كبيرة جدّاً إذا قارناها بما يمكن أن نجده عند الطلاب والطالبات من إجابات فيما لو سألناهم عن مؤلفين آخرين، وأعطي مثالاً واحداً يمكن أن يدل على غيره، وهو أنني في العام الفائت وبعد أن دخلت على طلبتي في مادة (الأسلوبية) في الفصل الأول من العام 2008 وجدت طالباً يلحق بي بعد المحاضرة ليسألني عن اسمي، وقد لاحظت أن الطالب لا يعرفني ولا يعرف شيئاً عني، هذا بعد مرور خمس محاضرات لي معه ومرور اثنتين وثلاثين سنة في التدريس الجامعي، وسنتي تلك كانت هي السنة الأخيرة لي قبل التقاعد عند سن الخامسة والستين، والطالب كان في سنته الجامعية الأخيرة أي أنه قد أمضى قرابة أربع

سنوات في الجامعة وفي قسم اللغة العربية تحديدا، وهذا يعطي مؤشراً عن حال جيل الشباب الذين تحدث عندهم تحولات نوعية بالغة في ما يهمهم وما لا يهمهم.

تلك تحولات ثقافية لا بد من التنبه لها، ولقد مرت علي اثنتان وثلاثون سنة في التعليم الجامعي عندنا رأيت فيها التغيرات تجري أمام عيني وفي قاعة الفصل في جدة والرياض، وتشكل هذه عندي قراءة للمجتمع وتحولاته على ثلاثة عقود، ربما وقفت عندها في مقالات لاحقة ـ إن شاء اللّه ـ ولكنني هنا أحصر القول في كتاب (لا تحزن) واستدرك القول كيلا يلتبس الأمر وأنبّه إلى أن ما جرى مع الطالب عن عدم معرفته باسمي لا يقوم عندي كدليل على جهل هذا الطالب، وإنما هو دليل كاشف عن تغيرات كبرى في الاهتمام ونوعية المتابعة، فهذا الطالب الذي لا يعرفني لا بد أنه وبشكل أكيد يعرف أسماء وشخصيات أخرى ممن تدخل ضمن دوائر اهتمامه، وهي ليست علامة جهل ولا علامة عقوق ولكنها ـ فحسب ـ علامة تساعد الباحث على التعرف على حقيقة المتغيرات وعلى الواقع الاجتماعي والثقافي للجيل الشاب وما يمس توجهاته. وحينما قلت قصة هذا الطالب لأحد زملائي وبدا منه الامتعاض لم أجد ما أقوله له سوى: لا تحزن، قلتها وأنا ابتسم وكأنني أمام نكتة، ولكن الحال كانت أنني كنت أتفهم الوضع ولا أحزن له وإنما أجعله مدخلاً للسؤال والمقارنة.

ـ 2 ـ

شيوع كتاب (لا تحزن) وانتشاره يقوم كمؤشر ثقافي لافت للواقعة الاجتماعية، وهي تتداخل مع الحال الثقافية لظاهرة الكتب

الأكثر مبيعاً، مما صار له مكانة كبيرة في أمريكا أولاً ثم في أوروبا تأثراً ومتابعة بعد ذلك، وكتاب (لا تحزن) قد سجَّل موقعاً متقدماً في قائمة الأفضل مبيعاً عندنا، ولا بد أن نتنبّه ـ أول ما نتنبه ـ إلى أن الكتاب لم يحظ بمتابعة ولا ضجيج إعلامي لا وقت صدوره ولا في ما تلا ذلك من سنين، وهو قد سار بين الناس مسرى النار في الهشيم من دون ترويج إعلامي، مما يجعلنا نستبعد العامل الإعلامي، ولكننا لن نغفل عن كون المؤلف ذاته يحظى بصيت إعلامي لا بدّ أن له دوراً في التحفيز باتجاه الكتاب، غير أن هذا لا يقوم كسبب رئيس أيضاً، وذلك أن للمؤلف نفسه كتباً أخرى كثيرة لم تبلغ مبلغ هذا الكتاب من الشيوع والقبول، وهذا يدفع بنا إلى البحث عن عوامل أخرى غير عامل المؤلف، وهذا ما كنت أبحث عنه في قاعة الفصل مع طلابي حيث ظللت أسألهم عن الكتاب، وكانت الإجابات تدور حول ظاهرة (الحزن) وأنها ظاهرة قال عدد من الطلاب إنها كثيرة ومنتشرة بين الجيل الشاب أولاداً وبناتاً، ولم يخف الطلاب إحساسهم بأنهم قد اشتروا الكتاب بسبب عنوانه وبدافع من حاجتهم لمواجهة أحزانهم.

لقد كنت ألفّ وأدور بشكل حاولت أن يكون تلقائياً وعلمياً وأن أبعد عنه الذاتية والمباشرة والإلحاحية لكي استخلص الرؤية منهم من دون إيحاء أو توجيه، ومع مداومة التحدث بأريحية مطلقة وبما يشبه العفوية توالت الإجابات مع دورانها حول هذه النقطة بالذات، وهي انتشار الأحزان وتمكنها من نفوس الشباب، مع عدم وجود سبل لتبديد هذه الأحزان.

هذا ما جعلني أرى أن الشيخ عايض قد اكتشف هدفه بحدس

ثقافي تصادف مع لحظته الصحيحة حيث لمس جرحاً اجتماعياً كامناً ولكنه منتشر وعميق، هذا من جهة، ثم إن الأمر وقد تبين أنه كذلك، لم يعد أمراً ثقافياً، وليس له شأن بمسألة القراءة والثقافة بما أنهما مظهران ثقافيان، ولكن المسألة تتعلّق بالحاجة النفسية، والذين يأخذون الكتاب لا يأخذونه للتثقف ولا للتعلم أو السياحة بين الحكم والأمثال والقصص، مما يملأ الكتاب، ولكنهم استقبلوا الكتاب بوصفه كبسولة علاج، ولم تكن المكتبة البائعة للكتاب إلا بمثابة الصيدلية.

لقد جاءتني شواهد كثيرة عن أناس قرأوا الكتاب وليسوا ممن تعنيهم قراءة الكتب أصلاً، وكذلك جاءتني قصص عن أسماء لأناس من علية المجتمع قرأوا الكتاب وشكروا المؤلف عليه وزادوه دعاء وأظهروا امتنانهم منه، وقد أشاروا أنه ساعدهم في مواجهة أحزانهم، وكل هذا ـ مع ما وجدته من الطلاب ـ يعزز الفكرة بأن رواج الكتاب كان دافعه الاستشفاء وليس التثقف. ويصح هنا أن نقول إننا لسنا أمام ثلاثة ملايين قارئ، ولكننا أمام ثلاثة ملايين حزين. وهذه هي الحقيقة التي استخلصتها من استطلاعاتي.

يدخل الكتاب تحت مظلة الكتب الأكثر مبيعاً، وهذا مصطلح يشير عادة إلى نوع من الكتب تلامس الهمّ الاجتماعي العام، وهي عادة من الكتب السهلة في موضوعاتها وفي أسلوبها، ويغلب عليها أن تكون لمؤلفين لهم صيت اجتماعي كبير، وفي الغرب يكون هؤلاء من الإعلاميين المقربين من دوائر القرار، أو من الفنانين أو من الساسة السابقين، أو من علماء النفس الذين يتعاطون مع المشاكل النفسية والاجتماعية الشائعة، وتأتي الكتب في هذه

الحالات لتكون كتب كشف أسرار أو كتب معالجة للحالات، وتكون كتب فضائح أحياناً، ولها كلها سمات وخصائص ثقافية أرجئ التفصيل فيها للمقالة القادمة حيث أقف على ظاهرة الكتب الأكثر رواجاً في أمريكا، وهي مصدر هذه الثقافة أصلاً وكان انتشارها العالمي نتيجة لذلك التأسيس الثقافي الأمريكي، وأنت لن تجد كتب برتراند راسل مثلاً تحصل على أي نسبة من المبيعات تؤهلها للمقارنة مع هذا النوع من الكتب، وفي أمريكا نكتة ثقافية عن آينشتاين وشارلي شابلن، وقد حدث أن تصاحبا في مشوار للمشي في سان فرانسيسكو، وحينما مرّا على جمع من الناس انطلق التصفيق، وهو ما جعل شابلن يلتفت إلى آينشتاين ويقول له مجاملاً: إنهم يحيونك سيدي، فجاءه الرد سريعاً بأن قال آينشتاين: إني أمرّ بهؤلاء القوم يومياً على مدى عشرين سنة ولم يلتفت إلي منهم واحد قط.

وقياساً على هذا تمكننا المقارنة بين كتاب عن حياة آينشتاين وآخر عن حياة شابلن، وسنجد الفرق في المبيعات، وهي فروق ثقافية لا بدّ من التبصر بأسبابها، وهي أسباب لا تتعلق بالمعاني الرومانسية التي تلقي اللوم على الناس وعدم جديتهم وعلى كساد العلم الجاد، هذه إحالات ساذجة لا تقرأ الظواهر على حقيقة أمرها، لأن الأمر يتعلّق بفكرة الرواج وخصائص الفنون الرائجة في مقابل العلوم الصعبة والخاصة، وفي ما بين العموم والخصوص تقوم فواصل وخصائص كثيرة، ولقد ورد في مسرحية لسوفوكليس أنه كان يلوم الشباب الروماني على عزوفهم عن فنون الحرب وتعلقهم بفنون المتعة والتسلية، حتى صاروا يؤثرون قضاء أوقات في الحمامات أكثر

من ممارستهم للمصارعة، والمصارعة في ذلك الزمن فن يقوم على تقوية الشباب وتهيئتهم للحروب والمواجهات، وعزوف الشباب عن الجاد إلى الممتع أو إلى الضروري نفسياً كلها سمات ثقافية لا تخص قوماً من دون قوم ولا تاريخاً من دون تاريخ، والمصطلح الثقافي المسيطر الآن هو مصطلح الكتاب الأكثر رواجا مما هو شاهد على خاصية ثقافية لها أثرها الكبير واللافت.

على أن كتاب (لا تحزن) وهو يضرب في أعماق الوتر النفسي قد لامس جانبا رمزيا تم توظيفه بطريقة تلقائية، وهي أن جملة (لا تحزن) تستدعي بالضرورة جملة: إن اللّه معنا، وهي حمولة دلالية قوية وعميقة في ثقافتنا حيث حادثة الانحباس في الغار من تحت الحصار والملاحقة الحسية والنفسية، وهي حادثة الهجرة الكبرى من الخوف والملاحقة إلى الانطلاق والتحرر، قصة كانت للرسول عليه السلام وصاحبه الصديق، ويأتي معناها كعنوان للكتاب لتحمل معاني الخلاص من الخوف والملاحقة حيث يقرأ القارئ هذه المعاني بدافع نفسي غير معلن وتتحرك نفسه باتجاه الانعتاق والخلاص، ولا شك أن العنوان هنا قد لعب دوره هذا بمفعولية عالية جدّاً، وسنزيد الأمر كله حديثاً وبحثاً في ما يتلو من مقالات ـ إن شاء اللّه ـ. وإن كنت أشير بعجالة إلى ملمح مهم وهو تقلص دور العائلة وجنوح الفرد نحو مزيد من الفردية، وذلك أمر يقف كسبب لشيوع بعض أنواع الكتب الأكثر مبيعاً حيث تحل محل الأهل في تقديم الوصاية والإرشاد وتوفير ملجأ نفسي مفترض، وهذا مبحث له مآله وسيكون أحد مباحثنا في هذه السلسلة من المقالات.

تصرفي كامرأة / فكري كرجل

ابتدأ ستيف هارفي حياته في ظل المعاناة والحرمان، وكان كل شيء يشير إلى أنه سيكون واحداً من أبناء الشوارع، ولم يكن لون بشرته سيساعده، فهو رجل أسود محدود التأهيل، غير أن السبل كلها تفتحت له، حيث استثمر موهبته الكوميدية في ترداد النكات وفي تصريف الحركات، وانطلقت حياته مع الكوميديا ليبلغ معها مكانة إعلامية ويحقق شهرة كبيرة قادته إلى أن يشرع في تقديم برنامج تلفزيوني صباحي يقوم على المحادثة، وهو ما يسمى في أمريكا ببرامج (التوك شو)، وشاع برنامجه حتى بلغ جمهوره المتابع له يومياً سبعة ملايين، ومما يعرض له دائماً هو التحدث بمشاكل النساء مع الرجال ومع الحب والحياة.

كونت له ثقافة الأحاديث في البرنامج معرفة بأهم الأسئلة التي تدور في رؤوس النساء الأمريكيات في حياتهن العاطفية، وهذا ما أغراه بتأليف كتاب وضع له عنواناً مغرياً هو: تصرفي كامرأة وفكري كرجل، من منشورات (أمستاد) في نيويورك 2009، ومن أول يوم للكتاب تحققت له مبيعات عليا حتى صار الرقم الأول في قائمة النيويورك تايمز في الكتب الأكثر مبيعا.

يحمل الكتاب عنواناً إلحاقياً هو: حقيقة تفكير الرجال حول الحب والعلاقات والالتزام، مع سؤال مركزي موجه للمرأة ويدور حول قضية الكتاب: كيف ترين رجلاً وتحتفظين به، وهو سؤال اكتشف هارفي مدى حساسيته للنساء اللواتي يقابلهن في برنامجه الصباحي، ولمس كم هو حساس ومؤثر. وهذا ما جعل صفحة الغلاف تلهب شعور أي امرأة أمريكية وكثيراً من الرجال، حيث هي قضية النساء الأمريكيات ـ كما هو حدس المؤلف وخلاصة تجربته ـ وفي الوقت ذاته جاءت القضية مغرية للرجال ليعرفوا أين يضعون أنفسهم داخل هذه القضية من باب حب الاستطلاع من جهة ومن باب التعرف على مشاعر الجنس الآخر.

هذا دفع بالكتاب إلى الأمام حاملاً معه الأسئلة، وملغزاً منذ البدء بفكرة نظرية مثيرة، وهي أن تتصرف المرأة كأنثى ولكن تفكر كرجل، وهذه وصفة سحرية أولية عن الفروق الجذرية بين الجنسين (وبكل تأكيد فإن لنا ملاحظات علمية جوهرية هنا ولكن نؤجلها إلى حين)، ونقول الآن إن المؤلف قد لعب على هذه المقولة بمهارة صحافية ذكية جدّاً، و كعادة هذا النوع من الكتب فهو يستعين باللغة البسيطة وبالقصص والأخبار وبعرض قدرات المؤلف على الادعاء بمعرفته بخفايا المشاعر واحترامه هذه المشاعر مهما بدت ساذجة أو صغيرة أو تلقائية.

وكانت مداخله تدور حول فحص بعض التصورات الأولية مثل التفريق بين الرأي والشعور، وقد صرف على هذه النقطة فصلاً كاملاً يؤسس عبره لقضيته، وركز على أن الشعور الذي يحدث بين اثنين هو الذي يصبغ أحكامهما على بعضهما، ويظل الرأي مخبوءاً تحت

سلطة الشعور المتبادل، والطرفان يتحركان تحت قيادة شعور كل واحد منهما عن الآخر من دون أن يتعرفا حقيقة عن رأي الواحد منهما برفيقه. وهذا في تصوره هو ما يسبب خيبات أمل كبيرة حينما يرتبط الطرفان تحت قيادة الشعور من دون كشف لحقيقة الرأي الذي سيتكشف مع الوقت ليتفاجأ الطرفان بأنهما لا يتناسبان.

هذا قاده إلى أهم فصل في كتابه، وهو الفصل الذي يركز فيه على كشف (الرأي)، والرأي في نظر المؤلف هو ما يمثل حقيقة الرجل وعلى المرأة أن تحسم أمرها من البداية لتتعرف على رأيه فيها، وذلك بأن توجه له خمسة أسئلة رئيسة ومصيرية، هي:

1 ـ ما أهدافك القريبة...؟

2 ـ ما أهدافك البعيدة....؟

3 ـ ما رؤيتك حول العلاقة، وما مفهومك لها...؟

4 ـ ما رأيك بي....؟

5 ـ ما شعورك نحوي...؟

وينطلق في مناقشة الأسئلة هذه واحداً واحداً مع عودة للتركيز على السؤالين الرابع والخامس والتفريق بينهما، أي بين الرأي والشعور، وهو في ذلك يحث المرأة على أن تحسم هذه الأسئلة أولاً وتكشف عن (رأي) الرجل في هذه الأسئلة كلها قبل أن ترتبط معه في رابطة الزواج، ووسط هذه الأسئلة ستتفرع مواقف مهمة من مثل رأيه في إنجاب الأطفال وفي تكوين العائلة، مما هو تصور حاسم لتقرير مصير المؤسسة الزوجية.

هذه أمور قد تبدو ساذجة في المجتمعات التي تعتمد نظام العائلة والترابط الأسري، ولكن المجتمع الغربي باعتماده المطلق على الفردية ستكون هذه الأسئلة مهمة ومصيرية وسيكون الكتاب ضرورة اجتماعية ونفسية.

كتاب هارفي كتاب ينجح في مجتمع تقوم فلسفته على الحرية المطلقة للفرد بحيث يجد الفرد نفسه المسؤول الوحيد عن قراراته، وبما أنه مجتمع مفتوح فإن جدول العلاقات يكون مثل جدول الخيارات، وهنا تخترع الثقافة أوصياء جدداً وبدلاً من نصائح الجدات تأتي نصائح المؤلفين المغامرين الذي يتنبهون بحدسهم التلقائي للتعرف على دقائق الهموم الفردية فيضربون عليها وهنا تأتي الاستجابات سريعة وشاملة لأن المشاكل الملموسة تظل حبيسة على مستوى الفرد ولا يعلم الفرد أن غيره (غيرها) يشترك في المشكلة نفسها، وإذا رأت المرأة الأمريكية ـ بحسب حدس المؤلف ـ كتاباً بهذا العنوان فإنها ستتحرك مباشرة باتجاهه إحساساً منها بأنه قد لمس ما في داخل شعورها وأن فيه الحل لمشكلتها، وهي لن تقف عند كتاب واحد فقد يصدر غداً أو بعد غد كتاب آخر يكون صاحبه أكثر ذكاء ودقة في اختيار عنوان يضرب على وتر نفسي حسّاس، وسيكون له أيضاً مبيعات كبرى تحتفل لها النيويورك تايمز، وتظل الثقافة تبتكر بدائلها من الأوصياء.

وفي الموضوع مزيد كلام، وكل ذلك حول ثقافة الاستشفاء التي هي المحرك الأبرز لثقافة الأكثر مبيعاً، كما سنتها الثقافة الأمريكية ثم تسرّبت للعالم كله في نسبة تتوافق دوماً مع ارتفاع انعزالية الفرد وتقلص دور العائلة، حيث تتفرّد الحياة بالشخص لتعزز

فرديته وعزلته، وتنشأ عنده الحاجة حينئذ لمثل هذه الكتب التي تملأ الفراغ الثقافي وتقدم نوعاً من الآباء الجدد والوعّاظ الجدد. وفي ما يخص كتاب هارفي تحديداً فإن ملاحظات علمية كثيرة لا بدّ من طرحها في نقد الكتاب من الناحية العلمية وفيه عيوب جذرية سأناقشها في المقالة ما بعد التالية.

الإيمان يشفي

احتاج الدكتور هربرت بنسون إلى السفر إلى جبال الهمالايا والبقاء طويلاً مع رجال الدين التيبت لكي يدرس الأسباب التي تجعلهم مسالمين وطيبين في نفوسهم وفي أبدانهم، وكان يحمل في نفسه المعنى التاريخي القديم الذي يؤكد على أن الإيمان يشفي، وبنسون هذا طبيب نفسي مختص وممارس في جامعة هارفرد، وأصدر كتاباً عنوانه (الاستجابة الاسترخائية) وهو الكتاب الذي حقق مبيعات كبرى وصار الأول في ذلك، ثم أتبعه بكتابٍ ثانٍ، هو (ما بعد الاستجابة الاسترخائية ـ Beyond the Relaxation Response) وقد صدر عام 1984.

لقد بذل بنسون جهداً مكثفاً ليضع صيغة عملية / طبية لهذا المفهوم، وهو يدرك مع ذلك أن مفهوم الإيمان ليس له قيود، ولكنه الإيمان بالمعنى المطلق، المهم للمرء هو أن يؤمن بشكل مقنع وعميق، إما الإيمان الكبير ـ كما نفهمه نحن بصفتنا الإسلامية أو يفهمه مؤمنون آخرون لهم صفات أخرى، ومثله الإيمان بفكرة ما أو الإيمان بالذات والثقة بالنفس ونجاحاتها والقناعة بقيمة المرء في الوجود وصلابته أمام التحديات.

يفعل الإيمان فعله بالمرء، ولكن لا بد لهذا الإيمان من تحفيز، وقبل ذلك لا بد من اكتشاف هذا الإيمان والانتماء إليه، والناس تغفل تحت وطأة مشاغلها عمّا لديها من إيمان، ولكل امرئ في هذا الكون إيمان من نوع ما، قد يكون كبيراً ومشهوداً، وقد يكون صغيراً يحتاج إلى كشف وتعرّف، وهو حصانة كبرى ومساعد كبير، والغفلة عنه تجعلنا في العراء، ومن استعاده تحصّن به للمواجهة.

ومن رحلة بنسون إلى التيبت تولد كتاباه عن (الاسترخاء) وراح في كلا الكتابين ـ وأهمها عندي الثاني ـ يشرح ويبحث عن المشروع، ولقد قرأت الكتاب الثاني بمتعة وتمعن، واستفدت منه، ونقلت الفائدة إلى عدد كبير من الأصدقاء والمعارف الذين مرّت بهم وتمرّ بهم حالات يحتاجون فيها إلى الاسترخاء، ولقد وجدت أن قراءة الكتاب كاملة ليست ضرورية، وأهم ما فيه يتلخّص في ربع صفحة، وهي التي تعودت دائماً على تصويرها كما هي للأصدقاء، مع ترجمتها للذين لا يعرفون الإنكليزية، وهي كالتالي:

1 ـ استلق في مكان مريح ـ يكون جسدك فيه مرتاحاً كله ولا تحس بأي ضغط على أعضائك ـ ولا بد أن يكون المكان هادئاً بعيداً عن أصوات المزعجات، ولا بد من إغلاق الهاتف والتأكد من عدم وجود أي شيء قد يقطع خلوتك الصامتة تمام الصمت، ولمدة عشرين دقيقة متصلة ومن دون قطع أو إرباك.

2 ـ أغلق عينيك، واسمح لأعصابك بالاسترخاء التام من دون شد أو ضغط.

3 ـ ركز على تنفسك، وتنفس براحة وبشكل طبيعي، وأطلق

عينيك إلى داخل جسدك حتى لكأنك ترى الهواء يدخل أنفك متجهاً إلى بطنك (وليس صدرك، أي اسحبه إلى داخل البطن، ولا تقف به عند الصدر ولتشعر بانتفاخ بطنك بالهواء، ودع عينيك تسيران مع الهواء الداخل إلى جوفك بهدوء وراحة، وليدخل الهواء من الأنف متجهاً للبطن ـ لا للصدر ـ ثم ليخرج من الفم، في تعاقب أكيد من الأنف دخولاً ومن الفم خروجاً، من بعد أن يكون ملئ البطن بالهواء، وهذا يحسن أن يأخذ وقتاً معقولاً، بحيث لا تضغط على نفسك ولا تسارع في التنفس، لأنك ستحتاج إلى هذا الوقت كما سترى في الخطوة التالية.

4 ـ اختر جملة أو كلمة يكون لها معنى خاص بك، وقد رأى بنسون أن المؤمنين بالله يختارون كلمات لها علاقة بهذا الإيمان، وعند المسلمين وجد كلمات مثل: اللّه أكبر، أو سبحان اللّه، أو الحمد لله، أو ما يختاره أي مسلم بحسب ارتياح قلبه، بينما أصحاب الديانات الأخرى اختاروا كلمات تتفق مع ثقافتهم الدينية، واختار غيرهم كلمات تعني لهم شيئاً خاصاً وعميقاً، وهذا هو الشرط، أي أن تختار جملة أو كلمة تعني لك شيئاً مريحاً وتستجيب له أعمق مشاعرك، مع شرط واحد وأكيد، وهو أن تكون الجملة قصيرة ويكفيها الوقت الذي كان فيه تنفسك في داخل جوفك، وأنت محتاج إلى ترديد هذه الجملة مع دخول الهواء إلى خروجه، أي أنك ستقولها في خلال العشرين دقيقة مرات ومرات بحسب لحظات دخول النفس وخروجه بحيث لا تزيد خارج لحظة التنفس.

5 ـ لا تسمح للهواجس بأن تباغت خلوتك هذه، وكلما جاءك

هاجس فقل له: اذهب الآن وعد لاحقاً، واحرص على التركيز الشديد، مرسلاً عينيك المغمضتين ومركزاً على جملتك المختارة داخلة مع النفس وخارجة معه، واستمر على هذا في جلسة استرخائية مريحة لجسدك وأعصابك لمدة عشرين دقيقة مرتين في اليوم.

يرى الدكتور بنسون أن أثر هذا التمرين على الجسد يظهر بعد مدة من الممارسة لا تقل عن أسابيع، ولذا لا يحسن استعجال النتائج، ويؤكد في كتابه أن التجارب أثبتت نجاحات كبيرة، وقد تمت التجارب في هارفرد، وعولج أناس من الضغوط النفسية ومن أمراض عضوية أيضاً من مثل ارتفاع ضغط الدم والأرق والصداع، والتوترات بعامة، بل إنه ذكر حالات شفيت من أمراض خبيثة، وأخرى مستعصية.

كل هذا يقوله المؤلف تحت مظلة المعنى القديم الكبير في أن الإيمان يشفي، ولكننا نحتاج إلى تفعيل الإيمان في نفوسنا، وارتأى هو هذه الطريقة لتساعد على تقوية الحس الذاتي وإيمان الإنسان بنفسه والدخول إلى أعماق ذاته عبر تحرير الذات ولو لدقائق في اليوم حيث تأخذ النفس إجازة قصيرة بعيداً عن ضغوطها اليومية المتكالبة عليها.

لقد استفدت أنا شخصياً وأفدت آخرين ممن عرفت، ولا شك أن عون اللّه ميسور لنا إذا أحسنّا طريقة طلبه وأحسنّا الاتجاه إليه، لكننا بكل تأكيد نحتاج إلى أنواع من التدريب والتوجيه، وفي

لحظات المرض تضيع بوصلة الإنسان ويحتاج حينها إلى من يدلّه على الطريق ويساعده في الوجهة.

وفي الموضوع مزيد حديث سيتتابع القول فيه في ما يأتي من مقالات.

العنوان بوصفه مادة تسويقية (هل العقل رجل...؟)

ـ 1 ـ

استعرضنا ثلاثة كتب بوصفها أمثلة على ما صار يسمّى الأكثر مبيعاً، وثقافة الأكثر مبيعاً تعني الأكثر استجابة للرغبات العمومية لدى الناس، ولن نتعرف على حقيقة هذه الكتب إلا عبر التعرف على ظروف الاستجابة، فالذي يجعلها أكثر مبيعاً هو في ملامستها لدافع ذاتي عند مستقبليها، وسنجد أدلة على هذه الدوافع إما عبر الاستطلاع وقد فعلنا هذا في مقالنا عن كتاب (لا تحزن)، أو عبر خصائص أخرى كنا أشرنا إلى عدد من ملامحها الأساسية المؤثرة في صناعة هذا النوع من الكتب، وبقي أن أشير هنا إلى الدور الذي تلعبه العناوين (وبعضهم يفضل أن نقول عنوانات)، وهو دور مهم نراه في تمعننا لها.

ونبدأ بكتاب (لا تحزن) للشيخ عايض القرني، وهو كتاب اعتمد على هذه الجملة: لا تحزن، بما لها من شحنة نفسية ثقافية في الثقافة العربية، والإحالة هنا إلى حادثة الهجرة الكبرى لرسول اللّه (ص) مع صاحبه أبي بكر حيث فرّا من مكة ولاحقتهما جحافل

قريش بخيلها وقضيضها، مع مكافأة كبيرة لمن يمسك بهما، وكانا يختبآن في الغار اتقاء للمطاردين، ولم يك بينهما وبين العدو المطارد سوى نظرة عين، ولو نظر أحد الفرسان إلى حوافر قوائم فرسه لرأى المختبئين في الغار، وهذا ما همس به أبو بكر لصاحبه، حيث جاءه الرد: لا تحزن إن اللّه معنا، وهذه جملة تاريخية محفورة في ذاكرة الثقافة العربية، وترتبط ارتباطاً دلالياً وثيقاً وملازماً بجملة رديفة صاحبت هذه الجملة بتلاحم نفسي عميق، وهو جملة: فأنزل سكينته عليه، وهنا جرى توثيق الصلة المعنوية بين: لا تحزن، ونزول السكينة. وفي ما بين الجملتين ترقد ذاكرة لها عمق تاريخي ونفسي متأصل.

لقد جاء كتاب القرني ليجر الذاكرة القرائية باتجاه هذا المعنى العميق، وكل امرئ حزين سوف يتبادر إلى ذهنه هذا الترابط التاريخي بين مواجهة الحزن واصطياد السكينة التي هي مطلب أي مكلوم، وهي لحظة المواجهة الواعدة، ولا شك أن العنوان المختار هنا قد فعل مفعوله النفسي في تحريك الأمل بعين الناظر للكتاب ومعه تتحفز الذاكرة باحثة عن سكينتها المفقودة، مع تمثّل تام لحال القصة الأولى وحال الخوف الأول وحال الحزن التأسيسي الذي كان يهدد مصير الدعوة كلها، ولكن اللّه أنقذ الرسالة بنزول السكينة ومن ثم تمت صناعة التاريخ.

— 2 —

وإن كنا ضربنا مثلاً على الدور الإيجابي لوظيفة العنوان في مثال (لا تحزن) فإننا نعطي مثلاً آخر سلبياً هذه المرة، وهو عنوان كتاب

هارفي (تصرفي كامرأة وفكري كرجل)، وهو عنوان لعب على الخدعة الثقافية النسقية التي تنسب العقل للرجل وتخصه بصفة الفكر، وتفرد العاطفة للنساء، وهي خدعة ثقافية تعتمد على ما نسمّيه العمى الثقافي، حيث ينساق البشر نحو معانٍ يكونون قد صنعوها في القدم حتى تمكنت من الاستقرار الزماني والتواتر الروائي، وكل وهم في الثقافة إنما يتركز ويصير بمثابة الحقيقة إذا توفر له شرطان، هما طول التعاقب الزمني، ثم تواتر القول فيه، ولقد مرَّ على البشرية أزمنة سحيقة وممتدة ثقافياً وتاريخياً تقول إن العقل رجل، وهو قول ممتد في الزمن ومتواتر على الألسنة، وبسببه اتخذ هارفي عنوان كتابه، وكأنه يقدم هدية سحرية للنساء بأن يحصلن على الكنز العظيم الذي ظل بعيداً عنهن، وهو هنا يعدهن بحيلة شيطانية ماكرة لكي يحصلن على الهدية العظمى فيفكرن كالرجال، ولا شك أن هذا العنوان قد خدع الكثيرات لأنهن ضحايا التنويم الثقافي والعمى الفكري، وهو في الوقت ذاته يعزز غرور الرجال بأنهم أهل العقل الفكر.

لم يخطر ببال المؤلف أن يراجع مقولته لأنه ليس من أهل الثقافة المتخصصة وهو رجل من أهل الكوميديا ورجل علاقات عامة لا أكثر، كما لم يخطر ببال قارئاته أن يناقشن عنوانه هذا لأن اللواتي يقرأن الكتاب هن عادة من ضحايا المجتمع الذكوري ويجذبهن الوعد بمعرفة الطغاة والتعرف على أسلحتهم وسر قوتهم، والكتاب يوهمهنّ بذلك.

لا شك أن الكتاب يقوم على عنصرية ثقافية ضد النساء، كما أنه يقوم على وصاية ذكورية واضحة، بمثل ما يستغل ظروف

المكلومات والمكلومين أيضاً ويقدم لهن قشة للنجاة مثله مثل ما يسمّى الطب البديل وطب الأعشاب والطب الصيني والشعوذة والتنجيم وغيرها من الفنون التي تروّج بين المحتاجين المكلومين ولا لوم عليهم، ومن ذا يعاتب مخنوقاً إذا انتحبا ـ كما هي كلمة نزار قباني ـ.

وأخطر ما في هذا النوع من الكتب هو أنه يمر من دون نقد، والنقاد عادة لا يقفون عند هذه الكتب استهتاراً بها من جهة، وبسبب كثرتها المفرطة من جهة ثانية، وهي كتب عادة لا تعيش طويلاً ويحل غيرها محلها في دوامة تجارية لا نهائية، وهي مظهر ثقافي عصري، كأحد مظاهر الثقافة الجماهيرية، وهي نوع يقوم على توظيف البعد النسقي للثقافة، ويتخذ من رغبات النفس المقموعة وسيلة للنفاذ، وكم تعجبت فعلاً حينما رأيت في بعض مناسبات بعض نساء كنت أعدهن من المثقفات الواعيات ووجدتهن يمتدحن كتاب هارفي ولا ضير من ذلك إذا كنا نريد منه المتعة أو التعرف على واقع الحياة البشرية أو تعلّم بعض ما فيه، ولكن يجب ألا يفوت علينا إدراك ما فيه من ضرر ثقافي ومن تعزيز للنسق وتأكيد على الوصاية من جهة وعلى إشاعة حال العمى المعرفي من جهة ثانية.

ويكفي أن نتذكر أن كتاب هارفي يضع ثنائية ثقافية جاهلية ونسقية تقول إن الشعور امرأة وإن الرأي رجل، ويحاول في الكتاب أن يدرس المرأة كيف يكون لها رأي وكيف تصنع الرأي عبر خمسة أسئلة بسيطة وبدائية، ولقد استعرضتها في المقال الرابع من هذه السلسلة، ولا شك أن الدفع بالمرأة لكي تصدق كلام هارفي وتبسيطاته سيجر معه حزمة من الأخطاء النفسية والاجتماعية لا يمكن

تصورها إلا بعد حدوثها، وهو كلام يشبه الإعلانات وإغراءاتها، والثقافتان متماثلتان بكل تأكيد. وكما نتساهل مع أنفسنا فنسمح لها بأن تنخدع بالإعلانات مثلاً أو تستجيب لإغراءات الموضة فإننا أيضاً نتساق وراء الكتب المسماة بالأكثر مبيعاً ونسمح لأنفسنا بأن نصرف مالنا وبعض وقتنا للتمتع بالحش والوشاية والإشاعة والتزجية السريعة والكتب السهلة والروايات الفضائحية، وهكذا مما هو تافه في رأي الفكر الجاد ولكنه ـ مع ذلك ـ يظل ضرورة بشرية بما أنه مصدر للمتعة، ولنتذكر كتاب الأغاني مثلاً، وهو كتاب يمكن أن نقول عنه إنه من النوع الأفضل مبيعاً، حيث شاع في ثقافتنا من يوم صدوره حتى اليوم، وهو كتاب في المتعة والحش والسواليف والحكي، أي في الثقافة الجماهيرية وثقافة التسلية، وأينه من كتب الخليل وابن جِنّي والغزالي مثلاً، ولكن لكل من هذه وقت ولكل من هذا حالة، والمرء يقف عند هذا وعند ذاك، والثقافة ـ أي ثقافة ـ لن تخلو من هذا جميعه، وكما نجد أفلاطون وأرسطو عند اليونانيين فإننا نجد الإلياذة أيضاً، وقد قال سوفوكليس عن ثقافة الاستحمام وثقافة المصارعة، حيث في الأولى استرخاء ومتعة وفي الثانية جد وتدريب حربي، وكان يستنكر على شباب أثينا تفضيلهم الاستحمام على المصارعة، وهو استنكار فيه مبالغة في الطهورية المفترضة، بينما البشر محتاجون لهذا وذاك ولا تقوم الحياة والثقافة إلا بتبادل الوظيفتين معاً، وظيفة الجد ووظيفة المتعة.

لقد أتى هارفي عبر كتابه متقلداً بقلادة النسق الثقافي حتى بدا وكأنه يعرف عن المرأة أكثر مما تعرف عن نفسها، مثله في ذلك مثل ما يشيع بأن نزار قباني عبر عن النساء بأبلغ مما يعرفن عن أنفسهن،

وهذا وهم ثقافي خطير سميته من قبل العمى الثقافي (كتاب: النقد الثقافي، الفصل السابع). ولو افترضنا أن كتاب هارفي من تأليف امرأة فإننا لن نرى عنواناً كعنوانه بأي حال من الأحوال، وهذا ما يدفع العجب من شيوع الكتاب بين النساء ومن إعجاب بعضهن به، وهو ما يفسر لنا مدى خطورة النسق وتغلغله في الذهن الثقافي وتمكنه منه حتى ليحمل المرء والمرأة تصورات تتناقض وينسخ بعضها بعضاً. ولقد لعب هارفي على هذه الحيلة وصارت فعلاً أحد أسباب تسويق الكتاب وشيوعه.

التحفيز الثقافي

في كل ما استعرضته في المقالات الماضية من أمثلة عن الكتب التي حظيت برواج عريض، وصارت الأكثر مبيعاً، نكتشف أن هذه الثقافة قد صارت في الواجهة اليوم، ومثلما تنتشر ثقافة الصورة وتحتل درجة عالية في التأثير والرواج فإن قوائم الكتب الأكثر مبيعاً هي أيضاً في الصدارة البصرية، وتتشابه الصيغتان من حيث إن الصورة تمحوها صورة أخرى، وكل صورة تبرز للصدارة وتضرب في أعماق التأثير الجماهيري العريض فإنها لا تلبث أن تتراجع تدريجياً حتى تنتهي للتلاشي حتى لتوشك أن تغيب عن الذهن كلياً وتحل أخرى محلها، وكذا حال الكتب الأكثر مبيعاً، فنحن لو استعرضنا ملحق الكتب في صحيفة نيويورك تايمز، وهو الملحق الرائد في مجال تحديد وجهات الكتب وكشف مساراتها وإشاعة شهرتها وتسمية البارز منها، لو استعرضنا هذا الملحق لرأينا كم هي كريمة المرور، فالكتب التي كانت حديث الصحافة قبل بضعة أشهر لم تعد كذلك اليوم، ويحل محلها كتب أخرى تكتسب الصفة نفسها، وستنتهي نهاية مماثلة أيضاً بعد بضعة أشهر بل إن بعضها لا يبلغ الشهور ويتراجع في أسابيع، ولسوف ننبهر فعلاً لو أحصينا عدد

الكتب التي وصفتها الجريدة بأنها رقم واحد في الأفضل مبيعاً، وسنجد رقماً كبيراً من حصيلة كل عام فما بالك بعشرة أعوام.

ولكن الكتب تتغير بمؤلفيها وعناوينها غير أن الموضوعات تظل متشابهة وقد نقول إنها واحدة لا تتغير، وهي في الغالب مسائل في النفسيات من جهة وفي الفضائحيات وفي الجرأة وكسر حدود المحذور من جهة أخرى، وأي كتاب يضرب في أحد هذه الاتجاهات فإنه يتأهل من حيث المبدأ للتحرك في سلم الأفضليات التسويقية، وهناك بعض مؤشرات عامة تساعد في تسهيل هذه المهمة، ومنها:

1 ـ المؤلف، حيث يقوم اسم المؤلف كعامل مهم في لفت النظر الأولي، ونحن في أمثلتنا السابقة رأينا ثلاثة مؤلفين لكل واحد منهم أسباب تدعو الجمهور العريض للانتباه، فالشيخ عايض القرني شخصية عامة مرّ عليها وحولها كلام كثير، شاع به الاسم وصار موضع حديث وموضع تنبه، إضافة إلى كونه داعية وواعظاً له جمهوره العريض عبر وسائل متعددة، أما هربرت بنسون فهو طبيب نفساني ارتبط اسمه بهارفرد، وهي كلمة سحرية في الثقافة الأمريكية، ومجرد إطلاقها كوصف لشخص بأنه أستاذ في هارفرد فإن هذا كفيل بجعله مرجعية مطلقة ومسلّماً لها وبها. وفي حالة ستيف هارفي فقد ذكرنا أنه ممثل كوميدي ومقدم برنامج تلفزيوني بلغ عدد متابعيه سبعة ملايين مشاهد.

2 ـ الموضوع، وهي مسألة حسّاسة جدّاً، وهي عادة تنتمي للحدس الذكي، أو لضربة الحظ الموفقة، وذلك حينما يقع المؤلف على موضوع يلامس نقطة ثقافية حساسة في المجتمع، وفي حالة

كتاب (لا تحزن) فإن الموضوع لامس حالة اجتماعية يبدو أننا في غفلة عنها بسبب وراثتنا للسكينة الاجتماعية المعهودة فينا من قبل، وهي إحساسنا أننا بخير وأن جيلنا الصاعد هو مثل آبائه في القوة والصلابة والإيمان والرضا بما يجري وما يأتي، وهذه معان تمثل الصورة المسلّم بها عن المجتمع ويرى المجتمع ذاته تحت هذه المعاني، غير أن الحياة تغيرت مع الجيل الشاب وصار هناك حالات من الفردية والاستقلالية تزداد تدريجياً وتجعل الشاب يشعر بأنه وحيد في مواجهة الكون، وليس مسلّحاً بعدة كافية للمواجهة، وفي الوقت ذاته لا يجد جواباً اجتماعياً وأسرياً يأخذ مخاوفه ووساوسه مأخذ الجد، وكل ما يسمعه فيما لو باح بمشكلاته هو نصائح شبه قمعية من مثل: اترك عنك الوساوس وتعوذ من الشيطان، وخلّيك رجال وانتبه لدراستك. . . . إلخ.

في وسط هذه الغفلة جاء كتاب (لا تحزن) ليكون دفتراً شخصياً يعد بكشف الهموم وجلب السعادة، وهي كما قلنا ثقافة الاستشفاء. وكذا الأمر مع الكتابين الآخرين وقد أشرنا إليهما في المقالتين الماضيتين.

3 ـ اللغة، من خصائص الكتب الأكثر مبيعاً البساطة اللغوية والأسلوب السواليفي الذي يعتمد على القصص والحكايات وضرب الأمثال، مع شيء غير قليل من الاستطراد الثقافي حتى ليجد القارئ نفسه في بعض هذه القصص وهذه الاستطرادات إلى درجة يشعر معها وكأنه المعني شخصياً بالكتاب، وهذا يعمّق علاقته بالكتاب، ومن ثم تعلّقه بهذا النوع من الثقافة وربما يدمن عليها حتى ليشتري كتباً أخرى تلامس الهدف نفسه، ولذا فإن زبائن الكتب الأكثر مبيعاً

في الغرب هم أنفسهم في كثير من الأحيان، والداخلون للتو يكونون بمواصفات مماثلة لأولئك.

4 ـ الاستجابة القرائية، يغلب على زبائن هذه الكتب أنهم من فئة غير متخصّصة في موضوع الكتاب، ومعظمهم ليسوا من قراء الكتب بالمعنى العلمي والثقافي، ولن تجد أساتذة ولا طلبة علم النفس مثلاً يلهثون وراء كتاب هارفي بكل تأكيد، كما أن بنسون لن يكون عندهم بمنزلة فرويد، ولن يصنفوه بالمكتشف العظيم ولا بالرائد، ولن يصفوا عمله بأنه نظرية في علم النفس، ولكن كتابه كتاب شعبي يقرأه غير المختصين ممن يعانون من مشاكل لم يجدوا لها حلاً مهنياً فيتجهون لهارفي وبنسون للمساعدة والتنفيس، وهي تفيد ولا شك، خصوصاً مع اقتناع القارئ بوجهة نظر المؤلف. وفي حالة كتاب (لا تحزن) فقد سمعت من الناشر قصصاً عن أناس من علية القوم وجدوا في الكتاب عزاء وسلوة عن أحزانهم، والحزن هنا لا يفرق بين فقير ووجيه ولذا يضرب في كل اتجاه، وإذا حضر احتاج المحزون إلى سلوى تعينه، ولا شك أن الكتاب يوفر ذلك، ولكننا نقول إن هذه ليست مسألة ثقافية والذين يتصفّحونه لا يفعلون ذلك لحفظ الأشعار والحكم التي فيه ولا لتعلم لغة التعبير الفصيح ولا حتى للمتعة القرائية، إنهم يفعلون ذلك من باب الاستشفاء والتطبب بالكتاب، وميزة الكتاب هي أنه وقع على جرح عميق مخبوء فتفجرت ينابيع النظر نحوه.

ولقد قامت الدار الناشرة بترجمة كتاب (لا تحزن) إلى اللغة الإنكليزية، ولن يكون للكتاب انتشار في هذه اللغة لأنه يعتمد كلياً على المخزون الديني والوجداني للقارئ العربي المسلم، ولذا فلن

تجد قراء في الإنكليزية لهذا الكتاب، اللهم إلا إن كانوا مسلمين، وهؤلاء فقط هم الذين يمكن أن يستوعبوا رسالة الكتاب، وهذه نقطة مهمة في كلامنا عن خصائص الكتب ذات المبيعات العليا، وهي أن الكتاب لا بد أن يضرب على أعماق الوجدان النفسي للقراء وإذا ضرب على الجرح العميق واستخدم الأسلوب المناسب، لغة ومضموناً مع مرجعية من نوع ما للمؤلف، فإنه سيحقق الرواج، وإذا غابت هذه الشروط تلاشت معها فرص الرواج، وفي الإنكليزية كتب كثيرة لا تحصى حول مواضيع الاكتئاب والحزن والنفسيات بعامة، وتحمل أسماء لشخصيات لافتة فعلاً، مما يجعلها متشبعة ولا يمكن النفاذ إليها إلا باستخدام أدوات ثقافية مماثلة ومنافسة، ولذا فإن (لا تحزن) هو كتاب في العربية ينهل من الوجدان الديني والنفسي للقارئ العربي المسلم وهذه هي الوصفية الأساس للغة الكتاب وموضوعه، ولو كان عندي وقت لتعرضت للغة الترجمة ولي عليها ملاحظات كثيرة.

وتبعاً لما قلناه عن مخاطبة الوجدان الثقافي العام فإننا نلاحظ أيضاً رواجاً كبيراً لكتب الفضائح وكشف الأسرار للسياسيين والمشاهير، وللروايات الفضائحية، وهذا انتشار يصدر عمّا نسمّيه في النقد الثقافي الاستجابة النسقية، وهو هنا يخص ميل البشر الفطري نحو الفضول النفسي، في التلذذ بالإشاعات والحش والنكت وإذاعة الأسرار، وهو طبع بشري متأصل، ويأتي هذا النوع من الكتب ليجيب على هذه الرغبات ولذا تشيع هذه الكتب وتدخل في قوائم الأكثر مبيعاً، وهي في أمريكا كثيرة جدّاً، وتعمر رفوف المكتبات وتغطيات الصحف ولغطها الدائم، ومثلها كتب التنجيم والضرب

على الأسرار والأوهام مما هو صور لتجليات الأنساق وتعبيرها عن نفسها.

وأخيراً أقول إن مصطلح (الأكثر مبيعاً) هو مصطلح في التسويق وفي نسق الاستجابات، وليس مصطلحاً في القراءة والثقافة والفكر، ولكل من هذين مجاله وعالمه وخصائصه، ولا يصح علمياً ولا منهجياً أن نضع هذا بجوار ذاك.

الصفحة البيضاء
(ما يعرفه الرجال عن النساء)

كان آلان بيس قد طرح كتابه العالمي (لغة الجسد)، وهو الكتاب الذي تربع على كرسي المبيعات عالمياً، وحقق أرقاماً مذهلة في البيع والانتشار، ثم ألف (بالاشتراك) كتابه الآخر ذا الشهرة أيضاً، وهو بعنوان (لغة الكلام ولغة الكتابة)، وهذه كلها تأسيسات ثقافية دفعت به إلى مغامرة ثقافية كبرى، وهي أن يكتب كتاباً عما يعرفه الرجال عن النساء، وأخذ على عاتقه أن يقول الحقيقة أو (حقيقة الأمر)، كما ورد في العنوان الجانبي للكتاب، وحقيقة الأمر هنا مخيفة ومذهلة، ولذا جاء الكتاب ليواجه المسألة مواجهة صارمة وطاغية في طريقة الكشف والاعتراف، وهو باحث معني بالشأن الثقافي ومعني بمسألة العلاقة بين الجنسين، ويهمه أن يكون صادقاً وصريحاً، وهذا شرط أخلاقي مثلما هو شرط معرفي.

عبر هذا الشرط جاء الكتاب حاملاً للعنوان، وترجمته حرفياً هي كالتالي: (كل ما يعرفه الرجال عن النساء: حقيقة الأمر)، وأنت إذا رأيت الكتاب في الأسواق ستجده مغلفاً بورق شفاف تقرأ عبره العنوان وترى رسمة الغلاف واسم المؤلف مع رسمات معبرة

وموحية، وعلى ظهر الغلاف سترى اسم الناشر والتصنيف المكتبي للكتاب، وسعر الكتاب، وإذا كنت مثلي مهتماً بأمر المرأة والثقافة وسبر الأنساق الثقافية فأنت ستبادر إلى شراء الكتاب.

أول ما يفعله مشتري الكتاب هو أن ينزع الورق المطوي على الكتاب تمهيداً لقراءته وتصفحه، وهنا يحدث ما لا يمكن أن يكون في حسبانك أبداً، خاصة أنك قد دفعت مالاً من جيبك الخاص لتعرف كل ما يعرفه الرجال من أمثالك عن النساء، وهنا ستكتشف المفاجأة العلمية الصارخة، وهي أن الكتاب عبارة عن ثلاثمائة صفحة بيضاء، نعم بيضاء لا شيء فيها، وأنت هنا ستقلّب الصفحات واحدة تلو أخرى، وستجد نفسك في صفحة بيضاء وراء أخرى، حتى نهاية الكتاب، من دون عناوين ولا فهارس ولا كتابات من أي نوع، ولا تعليق ولا رأي.

بياض في بياض، وفراغ لغوي وذهني، هذه هي حقيقة الأمر كما يريد آلان بيس أن يقول لك ولنفسه وللجميع من رجال ونساء.

إنك تشتري هنا ورقاً أبيض قد غلّفته دار النشر بين غلافين أنيقين ثم وضعته في تغليف شفاف محكم الربط من أجل أن تشتري هذه البضاعة المجهولة والمفاجئة وتتركك لتكتشف الأمر وحدك، وربما تنفجر ضحكا حينها وقد تغضب على ما صرفته من مال، وقد تتعجب وربما تستنكر، ولكن الأمر كان محسوما من الناحية القانونية. فالكتاب يحمل تصنيفاً علمياً وهو مسجل في عدد من المكتبات العلمية والمؤسسات الجامعية، وعليه اسم المؤلف وحقوقه العلمية والمالية مرصودة عالمياً، وإن خلا من أي كلام فإنه يبدو مكتنزاً بالمعاني.

هكذا فإن مؤلف كتاب لغة الجسد وصاحب الأفكار حول لغة الكلام ولغة الكتابة قد وجد نفسه فقيراً من الناحية اللغوية وتبين له أنه عيي وأن الثقافة عاجزة عن مده بمادة تعينه على تسويد ورقات كتابه، وكشف أن جهل الرجل بالمرأة خطير جدّاً حتى لا يجد في هذه الجهالة أي بارقة لاستحلاب الكلام، فقرر كشف الأمر عبر اللاكلام، وجاء الكتاب وكأنما هو لغة من لغات الجسد، حيث تقف الصفحة مشهرة عيّها وعجزها وكاشفة عن العنّة الثقافية في أمر هو من أخطر الأمور.

هنا سنستذكر كتاب هارفي كما ناقشناه من قبل حيث ينطوي ذلك الكتاب على ادعاء معروف بأن الرجل يعرف عن المرأة أكثر مما تعرفه المرأة عن نفسها، وكان من السائد في ثقافتنا العربية الادعاء بأن نزار قباني في شعره قد عبر عن المرأة أكثر من تعبيرها عن نفسها، وهي مقولة تتردد بين النساء ومنهن بعض المثقفات الكاتبات مثلما تتردد بين الرجال، وهو ادعاء واهم يقوم على ما سمّيته العمى الثقافي وقد أفضت في هذه المسألة في كتابي (النقد الثقافي ـ الفصل السابع).

إن ما يظنه الرجل في أنه يعرف المرأة هو ظن واهم وحقيقة الأمر ـ بحسب تعبيرات آلان بيس ـ أنه يجهلها فعلاً، وأنه يندفع من دون وعي على التعامل معها بحسب تصوره الذكوري للكائن البشري، وقليلاً ما يميز الرجل بين سمات وخصائص الكون الأنثوي وتلك الخاصة بالمذكر، وتجري التوهمات تبعاً لذلك، ومن الحق أن نقول إن المرأة تجهل أموراً كثيرة عن الرجل ولذا تقع في لعبة الخداع كثيراً، لأنها تميل إلى تصديق ادعاءاته وتقبل نظريته وتأخذه

مأخذ القبول ثم تكتشف بعد ذلك أنها مخدوعة به، وهذه صيغة متواترة تتردّد وتتكرّر بشكل مطّرد، ويأتي رجال مثل صاحب كتاب (تصرفي كامرأة وفكري كرجل) ليضع وصفات شعبية لتخليص الورطات وفك الأزمات.

إن ما بين الجنسين هي صفحات بيضاء كان آلان بيس صريحاً وصادقاً في كشف جانب منها، وليس كالمرأة لكشف عالم الأنوثة وعلى الرجل الاعتراف بحقيقة الأمر.

من أخطر عيوبنا الثقافية هو تصورنا لغيرنا كما نتصور أنفسنا فنقيسهم بمقياسنا، ونحن كعرب ومسلمين نشتكي دوماً من تصور الغرب لنا ونرى أنه تصور غير واقعي وأنه تعسفي ونمطي، وهذا صحيح، ولكن علينا أن نعترف أن تصورنا للأوروبيين هو أيضاً تصور تعسفي واختزالي، ومثله تصور بعضنا لبعض من فئات وطوائف وطبقات، مثله مثل تصور الرجل للمرأة وتصور المرأة للرجل، وكل يقيس الآخر بحسب مرآته الداخلية، ويندر أن يسمح للصورة الخارجية المحايدة بأن تتسرب إلى ذهنه وتأخذ دورها في التشكل والتجسد بصيغة واقعية تستبطن كل جوانب الصورة وإمكانياتها الدلالية والتلقائية.

إن اللعبة الثقافية من أخطر اللعب البشرية، وهي أخطر من الحروب ذاتها بل إن من يصنع الحروب ويؤسس لها هو التصورات الثقافية النسقية التي تفرز البشر بين محورين: محور الخير وهي النحن دائماً ومحور الشر وهو الآخرون دائماً، ونستطيع تذكر حماسيات الشعر الجاهلي ومعها جورج دبليو بوش، والفيلسوف الوجودي الكبير سارتر وكلمته: الآخرون هم الجحيم.

وكم هي صورة كاشفة كلمة: المؤمن مرآة أخيه، كما ورد في الحديث الشريف والتي تعني أن المؤمن ليس مرآة نفسه، وهذا هو معناها الضمني العميق، وإذا صار المرء مرآة نفسه فإنه إلى النسقية أقرب. وكم هم قلة نادرة أولئك الناس الذين يعملون بمنطق هذا الحديث فيزنون أنفسهم بحسب ميزان الآخرين فيهم ويقبلون ملاحظات ونقد غيرهم لهم وتصديق الصورة الآتية من خارجك بدلاً من الذوبان النرجسي في صورة الذات عن ذاتها. وينتهي بنا المطاف أن نعترف بأن دعوانا الكبرى ما هي إلا صفحات بيضاء لم تسوّدها الكلمات بعد.

ختاماً أودّ أن أتذكر الزميل الدكتور محمد أبا حسين ـ رحمه اللّه ـ حيث كان سبباً في حصولي على كتاب آلان بيس، وأحضره حينما أوصيته عليه، أتذكره وأتذكر أيامه معنا في القسم وما له من أثر علمي وأخوي لا يعتريه النسيان، عليه رحمة اللّه وغفرانه.

رفوف المكتبات (رأسمالية الثقافة)

في منتصف السبعينات ظهرت في بريطانيا بدعة جديدة حيث طرحت المكتبات العامة فكرة استثمارية تقول إن استعارة الكتب من قبل القراء هو عمل استثماري، فالقارئ إذا استعار الكتاب لبعض الأيام فإنه يستفيد من الكتاب في تحصيل الأفكار وتعلم النظريات إضافة إلى تزجيته لبعض الوقت في المتعة والتسلي بالقراءة، وهذا كله بسبب ما في الكتاب من مادة هي مصدر كل هذا الإمتاع ومصدر كل تلك المعرفة، وقد جاء هذا من فكر المؤلف ومن كدحه وعرقه البدني والذهني، وهنا جاءت الفكرة بفرض مبالغ مادية يدفعها القارئ بحسب عدد أيام الاستعارة المنزلية للكتاب، وكان المبلغ حينها بمعدل (بنس) عن كل يوم، ويرصد المبلغ لمصلحة المؤلف. (البنس يعادل ست هللات).

كانت تلك بمثابة ثورة مضادة، وهي نقلة خطرة باتجاه الرأسمالية الثقافية، وهي نوع من الرأسمالية غير المعهودة حينها في بريطانيا، وكانت بريطانيا في ذلك الوقت تجمع بين اشتراكية اجتماعية، ورأسمالية مقننة، حيث النظام الرسمي رأسمالي، ولكن الغالب على السلوك الاجتماعي والثقافي هو الطابع الاشتراكي، من حيث حقوق الشعب في الصحة والمسكن والدراسة والثقافة، وكانت

الثقافة مجانية في معظم أمورها من مثل دخول المتاحف وتوفر المكتبات العامة مثلها مثل المراكز الصحية والضمان الاجتماعي وغيرها. ولكن رياح الرأسمالية كانت تهب شيئاً فشيئاً لتشمل أمراً كان تلقائياً وها هو يصير استثمارياً، ولا شك أن (بنساً) واحداً في اليوم هو مبلغ بسيط، ولكنه كان يشير إلى تنامي تصور كان يتشكل ويفترض أن الفكر استثمار وأن العقل والخيال هما بضاعة يحق لصاحبهما أن يدخل بهما السوق ويكسب عبرهما مثلما يكسب التاجر في دكانه والصانع في مصنعه.

هي رياح في التغيير كانت تهب من جهة الغرب، من أمريكا، حيث تعزز الفكر الرأسمالي هناك، وقامت أمريكا في نهضتها كلها على تمثل تام للقيم الرأسمالية التي تقوم على حرية السوق وحتمية المنافسة كقانون للفوز والنجاح، وعلى أخذ كل شيء بوصفه سلعة، حتى الوقت، مما جعلهم يفرضون قيمة مالية للنصيحة والمشورة، وهما فكر ووقت من حيث الأصل، وإذا استفدت من فكر أحد ما أو من وقته فلا بدّ أن تدفع مقابل ذلك، مثلما تدفع للبضاعة وللآلة.

في الماضي كانت الكتب هبة جماهيرية، وكانت المحاضرات والندوات مفتوحة ومشاعة، وكان أساتذة الجامعة يعطون أحاديث تخصصية وعامة في وقت الغداء حيث تكون الدعوة مفتوحة تحضر مع طعامك وشرابك وتجلس على كرسي تستمع إلى نقاش في كل قضايا العلم والمعرفة بلا قيود ولا شروط، ومثلها كان قسم الدراما في الجامعة يقدم مسرحيات شكسبير مجانية حيث يؤديها طلبة القسم كتدريب لهم وكمادة للتخرج، ولقد حضرت عدداً منها في الهواء الطلق في منتصف النهار، وكم كانت ممتعة ومفيدة سواء

المحاضرات أو المسرحيات، ولكن التحول بدأ يأخذ مساره وصارت الأشياء بالتدريج تأخذ معناها الرأسمالي، وصار كل شيء بثمن، ولقد شهدت لحظات ميلاد بعض هذه المظاهر حيث صرت أرى إعلانات في جامعة إكستر عن محاضرات مكثفة تجري يوم السبت عن مواضيع محددة، وللاستماع إليها ثمن محدد كان حينها في حدود عشرة جنيهات عن مدة خمس ساعات عن موضوع معين، ولقد استفدت من بعضها ودفعت المبالغ المطلوبة لحضور جلسات عن شكسبير، وعن أفلاطون وعن المسرح الحديث وعن الفلسفة والأنثروبولوجيا، وكانت مفيدة فعلاً وتستأهل المبلغ والوقت، ولكن الطريف هو الجنيه الذي دفعته لحضور أمسية شعرية للشاعر الإنكليزي تيد هيوز، وذلك في منتصف عام 1979، وكتبت حينها مقالة بعنوان: للشعر مكان في القرن العشرين، وأتبعتها بعنوان جانبي هو: ليس ردا على غازي القصيبي، وكان الدكتور غازي قد تساءل حينها عما إذا كان للشعر موقع في ذلك القرن، وقد رأيت حينها أن كثرة الحضور لأمسية هيوز مع أنها مدفوعة الثمن يمثل دليلاً على جماهيرية الشعر، ولكن الزمن مرَّ ليؤكد صحة رأي القصيبي، وبريطانيا التي كانت تدفع للشاعر مالاً كي يلقي شعره هي نفسها التي دفعت بجامعة أكسفورد إلى نقض عقودها مع الشعراء ودفع غرامات مالية مقابل إلغاء العقود مبررة ذلك بأنها لا تريد أن تظل تنشر مادة غير مطلوبة من السوق ولم تعد تستجيب لمتغيرات الزمن.

يأخذ المعنى الرأسمالي بُعده بخطى سريعة ظهرت معها جائزة البوكر في بريطانيا، وهي جائزة سباق نحو رفوف المبيعات، وتقوم على مسابقة أبطالها الناشرون والمؤلفون الذين يتسابقون لنشر

الروايات التي يعتقدون أنها ستكسب السوق ويقومون بترشيحها، وبما أن فوز واحدة منها لا يشبع رغبات التسويق ابتكروا نظام القائمة الطويلة والقائمة القصيرة وتركوا زمناً يمرّ في ما بين مراحل الإعلان عن القائمتين ثم زمناً قبل إعلان الفائز النهائي، وهذا أدعى للتسويق وإطالة أمد الحديث عن الروايات والكتاب، وفي ذلك إشاعة للموضوع تساعد على تحفيز المبيعات. ويمر على هذا عدد من الأشهر تبرز فيه الروايات على الرفوف ويكثر القول حولها في كافة وسائل الإعلام، ولذا يبذل الناشرون جهوداً مضاعفة في الدفع بمنتجاتهم نحو هذه الحفلة الجماهيرية، وهي حفلة في التسويق والدعاية، يسوق الناشر فيها نفسه مثلما يكسب منها مالا، ومثله المؤلف طبعا، وهكذا تنشأ ثقافة تسويق الكتاب وتسليعه، وهي حفلة تتكرّر سنوياً، ومن أجلها جرى تقييد النشر بسنة واحدة، وذلك من أجل تكثيف الحس الاحتفالي والاستعداد للمناسبة القادمة من بعد انتهاء عرس الموسم وحصاد القيمة. ولا بد لذلك من توظيف شرط الذاكرة القصيرة حيث يُنسى الفائز سريعا من أجل تأهيل الموعد التالي في العام اللاحق لكي تأتي قوائم أخرى تحل محل القوائم السالفة وتأخذ دورها في الإشهار والتسليع، وهكذا دواليك في لعبة التكثيف الإعلامي ولعبة المسح والنسيان وإحلال أسماء محل أسماء وعناوين محل عناوين، وهذه تنسخ تلك كشرط لحلولها محلها، مثلما يحدث في الموضات وحلول موضة محل أخرى في دوامة متصلة من الإلغاء من جهة والإشهار من جهة أخرى.

تلك ثقافة مضادة للمعنى الاشتراكي الاجتماعي الذي كان سائداً بين الشباب البريطاني ـ والأوروبي بعامة ـ، ومثلما غزت الرأسمالية

المطلقة بريطانيا وحولت حزب العمال من حزب اشتراكي إلى واحد من أحزاب الوسط وجرى إلغاء مبدأ التأميم رسمياً من ميثاق الحزب، فإن الرياح هبت علينا في العالم العربي، وجاءت فكرة البوكر التنافسية بقوائمها التسويقية، وجاءت فكرة توقيع الكتب في المعارض وجاءت فكرة اشتراط مبالغ لإلقاء المحاضرات، أي فكرة تسليع العقل والخيال وطرحهما للسوق كبضاعة ومادة للبيع والتثمين.

ومن أطرف المظاهر عندنا هو ما سنّته أحدى دور النشر العربية حيث لاحظت أن الديدن العام في طباعة ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب غير نافع تسويقياً، لأن انتظار حظوظها مع التسويق مؤملة للوصول إلى نفاد الطبعة الأولى سوف يطول، ولذا صارت تطبع خمسمائة نسخة فقط على أساس أن نفادها لن يطول كثيراً، وهذا سيعطيها مجالاً لإعلان نفاد الطبعة الأولى (من دون ذكر الأرقام) والتبشير بالطبعة الثانية، وهكذا حتى تصنع من الثلاثة آلاف نسخة المعتادة ست طبعات مدّعاة. ولقد وجدت الدار أن هذا يعين على الإيهام بأن الكتاب مطلوب، وإذا رأى الزبون أن هذا الكتاب قد صدرت منه طبعتان في شهور تولَّد عنده الظن بأهمية الكتاب، وهي لعبة تسويقية حرصت هذه الدار على كتابة رقم الطبعة في الركن الأيسر من أعلى الغلاف وبشكل بارز بما أنه إعلان تسويقي، ولقد بدأت هذه الظاهرة تشيع مع دور نشر عربية عرف عنها الوقار والجدية، ولكنها اكتشفت أن وقارها وجديتها أضعفت سوقها وصرفت عنها الزبائن، وهنا وجدت نفسها مضطرة إلى مجاراة السوق، وما سنته قوانين البيع والتنافس.

لقد أخذت القيم الرأسمالية مأخذها حتى بلغت صيغ الوجوه والأشكال وجاءت فنون الترويج للشخصيات عبر نظريات تحسين الصورة وتجميل الوجه وتسويق الأسماء والصيغ التعبيرية، وتأسس لذلك وكالات مثلما تتأسس له نظريات وتخصّص له باحثون ومعاهد تدريب.

وهو كله ضرب من ضروب السباق إلى الرفوف الأمامية للمكتبات والرفوف الأمامية للذاكرة، ويتراجع قانون الوقار لمصلحة قانون الإثارة، وهي لغة مرحلتنا الحالية، ولم تك فكرة الأكثر مبيعاً في ثقافة النشر إلا إحدى مظاهر هذه النظرية الرأسمالية والسوق الحرة والتنافسية الثقافية.

لقد كانت الرأسمالية نظرية اقتصادية من إنتاج الثقافة ومن بنات أفكار الكتب، على أنها نظرية للتجارة والصناعة وما يتبعهما من سياسة مساندة، ولم تكن نظرية في الثقافة، ولكن الصنم يرتد على صانعه ليهيمن عليه ولذا انتهى المطاف بأن خضعت الثقافة للشرط الرأسمالي وترسملت حتى صارت من المسلمات الكلية التي لم تعد موضع تساؤل ولا موضع تحرج، وزالت الطهورية الأولى التي كانت تصبغ الكلمة بالنزاهة والتسامي وتباعد بينها وبين المال حتى صارت الفتاوى الدينية محددة الأسعار بناء على استثمار الوقت والفكر، بوصفهما بضاعة ومادة تجارية.

الفصل الثالث

الأمية: سؤال آخر

الأمية

يأتي مصطلح الأمية ليكون من أشد المصطلحات من حيث سوء الاستخدام، ويجري ربطه مباشرة بالجهل وتنسب إليه أسباب التخلف، ويجري دوماً الظن (التوهم. . ؟) أن السبيل إلى التقدم هو في محاربة الأمية. وكم ننعى على أنفسنا في أرقام ونسب نتداولها حول نسبة الأمية العربية، ونظل نلوك الكلام موهمين أنفسنا أن هذا هو سبب تخلف العرب، وأننا لن نتقدم ما دامت الأمية فينا بهذه النسبة أو تلك.

هذا كلام أول ما نقول عنه هو أنه كلام غير صحيح، ثم إنه كلام لا يقرأ الواقع ولم يقرأ التاريخ، وأول صور الواقع هي الهند، ويكفي أن نتذكر الطبقية الاجتماعية والجهل والمرض وكثرة المشاكل حتى ليبلغ الأمر أن يفرز المجتمع طبقة من الناس لا يجوز مسّها تعالياً عليها، وتبلغ نسبة الأمية درجات عالية حتى لتشمل مناطق كاملة بمجملها، وسنمضي بعيداً في القول عن هذه الأوضاع، ولكننا سنقول أيضاً إن الهند بلد متقدم علمياً واقتصادياً وديموقراطياً، مع وجود كل تلك العيوب، وهي عيوب تفوق ما عندنا بأضعاف مضاعفة.

ثم نأتي لنقرأ شيئاً عن الأمم السالفة، وهي كلها أمم تطغى عليها الأمية، والفئة القارئة تاريخياً هي فئة قليلة جدّاً، وهذا حكم يشمل الأمم كلها، ونحن في زمننا الذهبي في العصر العباسي، كنا

أمة من الأميين من الأندلس حتى الصين والقراء منا كانوا في مراكز محدودة، وبأرقام محدودة. ومع ذلك كانت الحضارة والترجمة ولنا دولة عظمى تغطي المعمورة في حينها.

لقد انشغلت في فترة مضت بسؤال حول أرقام المخطوطات المتبقية في مكتبات العرب والعالم عن تراثنا العربي، وهالني أن الأرقام صغيرة فعلاً، وأنت لا تجد لمخطوطة ما سوى بضع نسخ هنا أو هناك، قد تصل للعشرات كأقصى حدّ، ولا تصل للمئات بأي حال، وحينما أقلقني هذا الرقم وصرت معه ازداد قناعة بأن أمتنا ظلّت أمة أمية حتى في أزهى عقودها، وتبعاً لذلك تقوى عندي الرأي في أن الأمية ليست معياراً يصح القياس عليه للحكم على التقدم، ومن باب التأكد من سلامة إحصاءاتي حول المخطوطات وأعدادها الصغيرة، فإنني تشاورت مع الصديق الدكتور عبد العزيز المانع، الذي أكد لي صحة معلوماتي، وذكر لي أرقاماً لا تختلف عما وصلت إليه من أرقام، وهي كلها نسخ قليلة ومحدودة (وسأتوسع في هذه المسألة في مقالة تلحق ـ إن شاء اللّه ـ).

ولو فرضنا أن سائلاً طرح فكرة الضياع والتلف والحرق، وتمثل لنا بحادثة سقوط بغداد على يد التتار، فإن الأمر سيظل على حاله، لأننا ما زلنا نتكلم عن نسخ محدودة حتى في دمشق والقاهرة وبلاد الحرمين والأندلس، ومهما ضاع شيء من المخطوطات فإن المتبقي علامة على الضائع، والنسبة بين ثلاث نسخ من مخطوط ما في مقابل ما يمكن أن يكون قد ضاع منه ستظل في حدود ضيقة، ولن نطرح ملايين النسخ مقابل ثلاث نسخ، ونقول إن الملايين ضاعت والثلاث بقيت، ولكننا سنقول عن رقم يتقارب في تناسبه مع العدد ثلاثة أو

عشرة. ثم إن الشواهد التاريخية تشير إلى حدود الواقعة الثقافية، فكل ما نعرفه عن ثقافتنا القديمة هو في بعض المراكز العلمية وبعض دور العلم وبعض المكتبات، وهي كلها تأتي في أرقام محدودة جداً، خمس مدن وسبعة مراكز وبضع مكتبات، وكل ذلك في بحر لجي من البشر المنسيين في كافة أصقاع مملكة العرب، ولأي واحد منا أن يسأل نفسه عن الجزيرة العربية والأناضول الأولى وشمال أفريقيا وسائر بلدان الأندلس، ولن يجد حينئذ ذكراً لأي منها لا في مساجد كبرى ولا مدارس ولا رجال علم ولا غير ذلك.

إذاً. . . فنحن إذا تكلّمنا عن مجدنا التليد فإننا نتكلم عن فئة نخبوية قادت الفكر والمعرفة وصنعت الثقافة وسط بحر مائج من الأمية، ولم يضرّها ذلك، وما كانت الأمية سبباً للتخلف ولا سبباً لضعف حضاري أو علمي، بل إن الأميين هم من فتح المعمورة، وما زال ذلك قائماً، وكل جيش في العالم يتكون من نسبة عظمى من العاديين ويقودهم رجل أو فئة غير عادية وينتهي الأمر، هذا في الحديث مثلما هو في القديم، حتى لقد نشرت الصحف الأمريكية تقارير عن جنودهم وجاءت الإجابات مذهلة في جهل الجنود لمهمتهم وجهلهم بالبلدان التي يقاتلون فيها، وهذه حالة الجموع دوماً.

ثم نأتي إلى ما هو أخطر من ذلك وهو أن الأمية ليست رديف الجهالة، كما أن القراءة والكتابة ليست رديفاً للعلم، ولكي أوضح ذلك سأطرح ثلاث جمل كاشفة هي:

1 ـ امرؤ القيس أمي لا يقرأ ولا يكتب

2 ـ طه حسين أمي لا يقرأ ولا يكتب

3 ـ محمود درويش أمي لا يقرأ ولا يكتب

لو قلنا هذه الجمل بهذا التتابع، سنرى أننا نقبل بالأولى من دون أن يترتب عليها تقليل من شأن امرئ القيس، وسنقول إنه أمي وهو لا يقرأ ولا يكتب من دون وجل، أما مع طه حسين فسنقول إنه لا يقرأ ولا يكتب، ولكننا لن نرضى بوصفه بالأمي، أما محمود درويش فإننا سنرفض الفكرتين معاً، ولو صحت إحداهما عنه فهذا سيقلل من شأنه، بينما لن يقل شأن امرئ القيس في الصفتين معاً.

من هذه اللعبة الثقافية سنرى أن الأمية لم تكن شرطاً للثقافة عند امرئ القيس لأن عصره كان عصرا أميّاً، ولكنه كان عصراً ثقافياً حتى لنجعله نحن المتعلمين نموذجاً يحتذى وكنا نرى أن من يحفظ شعره ويعرف سيرته هو المثقف النموذجي.

وإذا جئنا لطه حسين فإننا سنسلم حتماً أن القراءة والكتابة ليست شرطاً للتعلم وهذا الذي لا يقرأ ولا يكتب هو عميد الأدب العربي في عصر يسمّى عصر النهضة والتحديث، ولكن هذا لم يمنع الأذن أن تكون مادة للتعلم، وفي حالته كان السماع هو المصدر للمعرفة، وإذا قلنا هذا فإننا سنقول حتما إن كل سماع هو تعليم، وسيكون الأميون في كل مكان مؤهلين للتعلم والتحضر عبر السماع.

وإذا عدنا لمحمود درويش فإننا حتماً سنحتقره لو ثبت عندنا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك لغلبة الظن الواهم عندنا بأن التعلم والشهادات هي العلامة على الثقافة ولا سبيل سواها، وهذا وهم معرفي وربما أقول إنه تجاري جرى تسويقه من أرباب المدارس وأرباب الكتاب من ناشرين ومؤلفين، وهم من يروج لفكرة التعليم والتعلم وحصره بشرط القراءة والكتابة ومن ثم الكتاب ومبيعات الكتب وانتشار عادة القراءة، ونمضي في ذلك من غير تمعن ولا

روية، ولم نسأل أنفسنا قط ماذا لو تحوّل الشعب العربي كله إلى قراء وكتبة. . . هل سنغزو المريخ بهؤلاء الكتبة. . .؟ والأصح أن أقول: أنصاف الكتبة. . .؟!!!

في كل التواريخ من يصنع الحضارات هم أفراد قليلون ويتبعهم جموع لا تحصى، والذي يغير هي الأفكار والرؤى الكبرى، وهي التي تحول البشر من الخمول إلى الفتوحات، ومثال أمتنا الأميّة واضح للعيان، حيث تحوّل خمولها التاريخي إلى انفتاح عالمي ابتلع الجغرافيا والحضارات في بضع سنوات.

إن كل حالة تدقيق في المصطلحات والمقولات تكشف لنا كم نحن خاضعون لما نخترعه من معانٍ، وكم تتحكّم المعاني فينا حتى لنقع في الأوهام ونحن نظن أننا نتحرّر منها، لم تكن الأمية قط علامة على الجهل ولم تكن قط عائقاً حضارياً، وربما أجازف أكثر وأقول كم جنى العلم علينا من جنايات فأنتج الجهل والأمراض والحروب، وعلى المستوى الإنساني سنلاحظ حتماً أن الأمي طيب وبسيط وروحاني، بينما العالم يميل للتأدلج والعنجهية والتمذهب، وأخطر منه نِصف العالم ونِصف الطبيب ونِصف الفقيه، كما هو القول المأثور عمن يقتل الناس ويلقي بهم في الجحيم.

وسيكون لي عودة إلى مزيد من القول في الأمر وفي المخطوطات أفصل القول فيهما إن شاء اللّه. وإلى حينها فإني أطلب من الأعزة القراء والقارئات التأمل معي بهذا السؤال: هل لو تعلّم العرب ـ كلّ العرب ـ القراءة والكتابة وتخلّصوا من الأميّة تماماً. . هل سنغزو المريخ بدءاً من الغد. . .؟!!!

الأستاذ

منذ أن وصلت الثقافة البشرية إلى مرحلة امتهان الكتابة كأداة معرفية في التأليف والتواصل وهي تميل شيئاً فشيئاً إلى تمييز الكتبة بوصفهم طبقة علمية ومعرفية تتفوق عقلياً وطبقياً على غيرهم، والرجل الوضيع المهمش يصبح مكيناً وعلى منزلة رفيعة إذا ما اتخذ الكتابة والتأليف له حرفة ومجالا تداوليا كشأن الجاحظ الذي جاء من قاع المجتمع ومن هامشه الملغى ليصبح على شأن كبير بما أنه مؤلف تطرق أبوابه رموز زمانه ليؤلف لهم مؤلفاً يقترحونه أو يهديه لهم ـ كما تكشف مقدمات كتبه ـ.

والمسألة ابتدأت منذ زمن أفلاطون الذي لم يكن من بيوت الحكم والمال، ولكنه فيلسوف اعتمد الكتابة أداة ومعنى، ومع اعتماده الكتابة لتوصيل الأفكار تميز عن أستاذه سقراط الذي كان شفاهياً يعتمد على المحادثة والمحاورة، وهذا ما جعل سقراط شعبياً مثله مثل تلاميذه بينما جاء أفلاطون حاملاً ومؤسساً لنوع خاص من الطبقية الفكرية، حيث ارتبط خطابه الفلسفي بالتعالي والعنجهية بما أنه يقوم على احتقار البسطاء مع فرز قطعي يبعد النساء والعبيد والصبيان والأجانب ويقلل من قيمتهم الإنسانية والمعاشية والعقلية. ولا شك أن هذا الترابط الطبقي بين الفلسفة في نشأتها التأسيسية وبين

الكتابة ثم بينهما والطبقية المتعالية هو أمر تشهد عليه الوقائع وتبين مقدار كل ما هو كتابي على ما هو شفاهي، ومع الزمن جرى فرز المصطلحات في ما بين المتعلم والأمي، حيث ينسب العلم والتعلم لشرط إجادة القراءة والكتابة ومن لا يملكهما فهو أمي، وكلمة أمي ستكتسب مع الزمن معنى الجهل والتخلف، وكل محاولة لدرء الجهل والتخلف سوف تفترض أنها لن تتم إلا عبر تعليم الناس القراءة والكتابة، وسيجري تعزيز هذا الافتراض حتى ليصبح قاعدة كونية، وتقوم عليه خطط وسياسات ونظريات تربوية واجتماعية مبنية على هذا الأساس النظري الذي سيكون سلوكاً بشرياً يومياً حيث سيجنح الناس إلى تحقير أي أمي بدعوى أن الأمية جهالة، وكما أشرنا في المقالة السابقة، فإن الأمية هي مسألة محصورة حصراً قاطعاً بعدم القراءة والكتابة، ومن قرأ وكتب لا يسمى أميّاً، وهنا يتكشف الخلل التعريفي، لأننا حتماً سنقول عن امرئ القيس وعن طه حسين إنهما لا يقرآن ولا يكتبان ولذا هما أميّان، ولكننا لن نقول إنهما جاهلان.

ولكن، ومع مثول هذين المثالين أمامنا سيظل الناس يقولون إن الأمية هي الجهالة وسيقال إن هذا هو سبب أو علامة تأخر الأمة العربية مثلاً، وسنظلّ نتوهم أننا لو علمنا العرب القراءة والكتابة فإننا سنحل مشكلة التخلف. وهذا تصور لا شك في خطئه ولا شك في مجافاته لتحليل المشكل أو تصوره.

وسأسوق مثالاً واقعياً صار لأخي صالح حيث كان مسؤولاً عن مصلحة المياه في منطقة البدائع في القصيم وكان ينوي رفع الطاقة المائية هناك فاتجه مع المهندسين والفنيين يمسحون السفوح والأودية لرصد مواقع لحفر بئرين للماء، وظل الفريق يعمل ويتحرّك

لساعات، وكان أخي يلحظ أن رجلاً مسناً يتابعهم متفرجاً عليهم ومستطلعاً لأمرهم ولم يكن يتكلّم أو يعلّق، واكتفى بالمشاهدة والملاحظة، وحينما قرر فريق العمل موقعين للحفر فيهما تحرّك الشيخ باتجاه أخي متوسماً فيه أنه رئيس القوم لملاحظته أن الحديث يبدأ منه وينتهي إليه، وتفوه الشيخ بعد صمت طويل وقال: يا استاد (بالدال المهملة ـ كما هو النطق الشعبي) هل أنت ريس القوم. . . وهل لي أن أسألك عن اختياركم لهذين البئرين وهل هو عن علم جديد لكم. . . . ؟!!

يقول أخي إنه حينما سمع كلام الرجل الأمي بدا له أن في الأمر خبراً مغرياً، ولذا بادره بالرد قائلاً له: تفضّل يا عم. . قل ما تريد قوله. . . وحينها قال الشيخ إننا يا ولدي كنا في زمننا الأول لا نحفر بئرين متتابعين شمالاً وجنوباً، ولكننا نجعلهما متجاورين عن شرق وغرب، لأن الماء يجري من الشمال إلى الجنوب وإذا اشتغل البئر الشمالي منع تدفق الماء عن الجنوبي، أما إن كان شرقاً عنه أو غرباً فإنهما يتدفقان معاً ومن دون تأثر.

ابتسم أخي في وجه الرجل وشكره ثم أمر الفريق بتعديل مواقع الآبار وتصحيح ترتيبها من شمال وجنوب إلى تجاور شرقي غربي، وقال لنجرب هذا الحل ولنأخذه في الاعتبار في كل مشاريعنا القادمة، ولقد صح عنده بالتجربة أن قول الرجل الأمي كان أدق وأصدق من تصورات المهندسين والفنيين وآلاتهم الفاحصة بكل ما فيها من دقة مادية أو نظريات متواترة.

لقد كان كلام الشيخ الفلاح مبنياً على تجربة تواترت وتعلَّم هو وجيله منها، ومع أنه أميٌّ ومتواضع وقد يصف نفسه بالجاهل ـ كما

هي عادة هؤلاء البشر، حسب ما فرضته عليهم ثقافة المتعلمين من ترسيمهم تحت هذا المصطلح الظالم فعلاً ـ ولسوف نجد أن التجربة هذه توحي بتصوّر مهمّ استراتيجياً وهو أن المياه تتدفق من الشمال، ربما من جبال الأناضول أو ما وراءها، ومثلما هناك أنهار على وجه الأرض فهناك أنهار في جوفها تمر من الشمال إلى الجنوب، في كل أرجاء جزيرة العرب، وهذا ما هو ملموس في القصيم، وقد يعني هذا أن مياهنا ليست (كلها) مخزوناً أرضياً قديماً قابلاً للنفاد كما هو المتصور العام، ولكن هناك مياه جوفية مختزنة من القدم وبإزائها مياه جارية كأنهار دائمة التدفق، والتجربة الفلاحية تقول ذلك وتؤكده، وتجربة أخي صالح وفريق العمل معه تتجه لقبول هذا الاستنتاج ولقد نجحت تجربتهم العملية تلك وهناك مؤشرات لديهم تقول إن الماء من هذا النوع من الآبار السطحية ذات العمق الذي لا يزيد على مائة وخمسين متراً أو في حدودها لا يتناقص مع الاستخدام.

هذه قصة واقعية لرجل أمّيّ صار أكثر حكمة وأكثر دقة من المتعلمين، ولن ننسى الجانب التربوي هنا أيضاً، وهي أن الأمية مصحوبة بدرجة عالية من التواضع وكل أمي أو أمية يتسم سلوكهم بالإنسانية من حيث تقديم أنفسهم وملاحظاتهم وأسئلتهم تحت غطاء البساطة والاحتمالية والاستفسار التلقائي، بينما يرتبط التعلّم بالادعاء والفوقية والقطعية، وهذا فارق نلمسه بين فلسفة سقراط وفلسفة أفلاطون حيث كان سقراط حوارياً وتفاعلياً وتوصيلياً بشكل إنساني وهذا ما نقله تلامذته عن سلوكه معهم حتى لقد قبل حكم الجماعة عليه ورضي بأن يُقتل بما أن هذا هو رأي المجتمع وقراره، وكم هو فرق جذري عن طبقية أفلاطون وتعاليه العنصري والعقلي.

في كل مرة يعود المرء فيها إلى زمن الأمية ـ ولكل واحد منا مرحلة معها ولو قصيرة ـ فإنه يعود إلى شيء من التوازن مع نفسه ومع عالمه، وهناك شواهد كثيرة تشير إلى أن العلماء الكبار كلما كبرت بهم السن وصاروا شفاهيين وحكاواتيين صاروا أكثر حكمة وواقعية، حتى كبار الساسة والقادة والمفكرين السياسيين والاقتصاديين إذا ما خلوا لأنفسهم وتخففوا من سلطوية التخصص عليهم فإنهم يبدون في حال تأملية تصفّي أفكارهم في مصفاة التأمل الاستطرادي والتبصر بما مر وما كان وما خبروه فتأتي لهم روح نقدية ذاتية وروح في التبصر والتروي لم تكن لهم وقت حماستهم ووقت اندماجهم العضوي مع نظرياتهم، وهذه أمور تثبتها الحوارات التلفزيونية مع أهل الخبرة والتاريخ حيث تراهم على كرسي التلفاز وكأنهم غير ما رأيت في بطون الكتب ولا على مقاعد التحكم، وتراهم إنسانيين بدرجة تذهل من يشاهدهم يتحدّثون ويستخدمون الوسائل المباشرة في التعبير كحركات الوجه واليدين. وكم ظهر أناس من علية الطبقات ومن أشداء التاريخ ومع ذلك تتدفّق دموعهم وتضطرب حركاتهم ويظهرون أطفالا من بعد عمر من الجبروت. وهذا مظهر من مظاهر زمن الأمية والفطرية تقمعه سلطة الكتابة وادعاءاتها ولكنه يحتال لنفسه بالعودة مهما قمعناه تحت دعوى البدائية والتخلف، وما هو كذلك.

إن أشد قيم التخلف ليست الأمية ولكنه التعليم الادعائي بأنصاف المتعلمين كما قال المثل (ما قتل الناس سوى ثلاثة: نصف طبيب ونصف فقيه ونصف عالم).

إن التعليم الخدّاع هو التعليم القاتل وهو شبه التعليم وشبه

التقدم، وكم ذا نجد أن التعليم هو تجهيل والأمية أفضل منه لأن الأمية تواضع وتسليم بعدم المعرفة، ونصف العلم أن تقول لا أعلم، أما العلمية الواهمة فهي ادعاء وعنجهية ومن ثم هي خطر داهم ومتصل. ولقد قال لويس باستور كلمته الشهيرة: إن قليلاً من العلم يبعدنا عن اللّه وإن كثيراً منه يقرِّبنا إليه.

في كل مرة يتقوّى العلم ويشتد يأخذ بإنسانية الإنسان وبشرطه الوجودي الأهم، وفي كل مرة يكون التعلّم شبه تعلّم فهو الكارثة، وهو التخلّف، وما كانت الأمية هي سبب التخلّف كما لن تكون قراءة الأبجديات وضرب لوحة الحاسوب هي الوعد التقدمي.

المخطوطات أو علامات التقدم والتأخر

تأتي المخطوطات لتكون هي العلامة الثقافية الخالدة في تراثنا، ومنها نشأت مؤسسات ثقافية مهمة، أولاها دور الكتب التي تحوي هذه المخطوطات في بلادنا وفي أوروبا حيث ترحّلت أعداد منها إلى مكتبات الاستشراق واستقرت هناك ومنها نشأ علم تحقيق المخطوطات، وهو علم تولاه المستشرقون وتفننوا فيه ونشروا عبره كنوزاً من التراث العربي، وما زالت بعض النسخ المطبوعة في أوروبا تتواتر بين أيدينا عبر تصويرها في نسخ يتغير لون الغلاف ولكن يبقى الداخل كما هو بحسب طباعته قبل عقود من السنوات، وكم أجد الأمر ممتعاً حيث أحتفظ بنسخ من هذا النوع مما هو مطبوع في هولندا أو ألمانيا قبل عشرات السنين في مطالع القرن الماضي، وتولت بعض دور النشر العربية إعادة نشره (أو سرقة نشره) وظلت الورقات تشهد على مصدر الطبعة وأساسها وأساس تحقيقها، ومنها كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وهما كتابان حققا ونشرا في أوروبا قبل أكثر من قرن من الزمان، وهذا ما تكشفه الورقات كلها ولكن الغلاف المجلد يحمل اسم وشعار دور نشر عربية وضعت اسمها على جهد غيرها.

أخذ العرب المحدثون مهنة التحقيق عن المستشرقين، وجاء

جيل من المحقّقين العرب وحملوا على عواتقهم تحقيق التراث، وصار هذا فناً وعلماً له رجاله وله تاريخه العريض، ولي مع التحقيق قصص أولاها أنني كنت على مشارف هذا التخصص وأوشكت أن أكون محققاً فعلاً، وذلك أنني بعد عودتي من البعثة عام 1978 كانت جامعة الملك عبد العزيز تضم شطرين أحدهما مكة والآخر جدة، وكانت جدة هي الأحدث بينما كانت العراقة والثقل في مكة، خاصة في علوم الشريعة واللغة العربية، وكنت ميالاً لجدة وذلك تطلعاً لفرص العمل الريادي لحداثة كل شيء فيها بينما الأمور في مكة قد استقرت منذ عقود، ولا مجال لأستاذ جديد أن يشقّ طريقاً خاصاً لأفكاره وسط ذلك الجمع المتخصّص والمتمكن من الموقع وهم أصحاب الرأي والقرار، ولذا كنت أوثر الموقع الجديد لما يمكن أن تتوفر فيه من فرص الابتكار في المناهج وفي الوسائل معاً، ولكنني وبعد أن مرّرت أوراقي على مجلس الجامعة، وكان الأمر يحتاج إلى عمل مكثف لأن أصحاب تخصص اللغة العربية عادة يتم توجيههم إلى مكة مباشرة، وتلك كانت عقبة تهدد رغبتي في جدة. ولقد علمت لاحقاً أن ممثلي شطر مكة حاولوا الاعتراض على أمر تعييني في جدة وَهَمَّ بعضُهم بالمطالبة بإحالتي إلى مكة ولكنهم تراجعوا عن الفكرة تحسباً لعدم رغبتيَ، ولذا مرّ تعييني في جدة بسلام، ولكن المشكلة نشأت حينما تبين أن ملفي وكل سجلاتي محفوظة في مكة. وهنا احتجت إلى رحلة إلى مكة مصحوباً بخطاب رسمي يطلب تحويل ملفي إلى جدة تمهيداً لإصدار قرار تعييني، وفي مكة حرصت على أخذ ملفي قبل مقابلة الأصدقاء هناك، وما أن استلمت الملف حتى رأيت الدكتور عبد اللّه الجربوع الذي خطف الملف من

بين يدي مزمعا التحفظ علي وعلى ملفي لكي يقنعني بالبقاء في مكة، واستعان عليَّ بالصديق عبد الرحمن السليمان العثيمين، ووجدت نفسي بين الجربوع والعثيمين حيث قاداني إلى مركز المخطوطات، وبدأ العثيمين يفتح الأدراج ويعرض المخطوطات مع شرح واف لكل ما في المركز من كنوز تراثية، وكأنما كان يعرض ماء زلالاً على رجل يلوك لسانه من العطش. لقد كان منظر المخطوطات مغرياً وفاتناً فعلاً، وأوشكت أن ألين لحظتها، وأتقبل التعيين في مكة وذلك من شدة تشوقي وتعطشي لهذه الكنوز، ورأيت نفسي محققاً متخصصاً بين هذه الأوراق المفرودة أمامي، ولكنني راجعت نفسي وأخذت عزة العناد والتشبث بالموقف وشددت على أحاسيسي وتحايلت على مضيفي بقولي إنني سأدرس الأمر، وأخذت ملفي من يد الجربوع وذهبت إلى موقف السيارات حيث ركبت في أول سيارة أجرة عائداً إلى جدة مع ملفي حيث صدر قرار تعييني هناك، وانتهى أمري مع المخطوطات. ولا بد أن أقول إن عبد الرحمن بن سليمان العثيمين كان وقتها عام 1978 يظهر وعياً مذهلاً بالمخطوطات، وكان وعيه ذاك يشعرك أنه سيصبح عالماً متفرداً في التحقيق ومرجعاً يشار إليه ويعتمد عليه، وقد صار فعلاً حيث أصبح مرجعاً علمياً عربياً وعالمياً في مجال تحقيق المخطوطات العربية، وكان المرحوم محمود شاكر يرشّحه لهذا الدور ويصفه به وقد صار، ونعم العالم المحقق هو.

أما في ما يتعلّق بي فقد انتهى أمري مع المخطوطات والتحقيق كمهنة ولكن حبّي للنص المخطوط لم ينقطع قط، وما زلت أجد متعة خاصة كلما رأيت مخطوطة، وكم يفتنني منظر الورق والحبر

وخطوط اليد وتنسيق الصفحات وما تحمله بعضها من ألوان وتعرجات، حتى لكأني أنظر إلى حديقة زهور غنّاء.

ذاك حب متأصل للكتاب وللتراث، وهو ما حفظ في ذهني الأسئلة عن هذا التراث، وكان مما يشغل بالي هو عدد النسخ لأي مخطوطة، وكنت ألاحظ أن الأعداد دوماً قليلة ولا تجد من كتاب مخطوط سوى بضع نسخ متوزعة في أرجاء العالم من تركيا إلى أوروبا إلى مصر والمغرب والشام واليمن.

كان السؤال عندي ما الذي يجعل المخطوطات محدودة النسخ، مع أن ما يتواتر في قولنا هو عن مجد عريق في بغداد وغيرها وأن الكتب كانت تعمر عالمنا القديم، والسؤال هنا هو: أين هاتيك الكتب التي نتصور أنها تملأ مجال المعمورة العربية والإسلامية...؟!

كنت أحمل هذا السؤال وتصوّري هو أن الأعداد قليلة والأمة لم تكن تقرأ بمثل ما نوهم أنفسنا عنها، وظللت على هذا التصور سنيناً إلى أن قررت أن أحسم الأمر حيث صرت أطرح الأسئلة بصدق هل القراءة والكتابة فعل عمومي أم أنها عمل نخبوي وتخصصي ضيّق ومحدود، والدليل يأتي من أرقام المخطوطات التي تشير إلى أعداد قليلة، حتى ولو قلنا بالضياع والتلاشي وما قام به المغول من حرق وتمزيق وما طالته يد التلف والزمن، حتى لو قلنا بهذا فإن السؤال يظل شاهراً وجهه... وهو أن الأعداد التي نجدها الآن تشير إلى ضآلة في الرقم، مما يؤكد أمية الثقافة ومحدودية القراء، ويشير إلى أن عالم الكتاب بسيط من حيث الأرقام.

وهنا صار لي حديث مع الصديق الدكتور عبد العزيزالمانع

عرضت عليه رأيي هذا، وتفاجأت به يؤكد ظنوني بسرعة شديدة ويعطيني أرقاماً عززت ما ذهبت إليه، وقد قدم المعلومات بوثائق مصورة، وأثبت لي أن أكبر رقم لمخطوطة هو عن مخطوطة (شرح الواحدي لديوان المتنبي) وقد بلغت مئة نسخة، وهذا هو أعلى رقم معروف، باستثناء كتاب واحد هو في الواقع كراس مدرسي وهو كتاب (دلائل الخيرات) الذي وجد منه خمسمئة نسخة، ولكنه كتاب معد للطلبة ويتداوله الدارسون كمادة مقررة، أما ما عدا ذلك فهو بأعداد قليلة بعضها نسخة واحدة فقط، وبعضها بضع نسخ ولم يصل للمئة سوى كتاب الواحدي ذاك.

هنا يتعزّز القول إن فعل القراءة والثقافة كان فعلاً محصوراً ومحدوداً، والذي يقرر مصير التقدم في أمة من الأمم ليس هو وجود ملايين البشر ممن يقرأون ويكتبون، ولكنها فئة قليلة تجيد هذا الدور وتتمكن منه تمكناً إبداعياً وعلمياً وهي التي تقود الأمة للتقدم، وهذا ما تدل عليه وقائع التاريخ كلها فشكسبير كان واحداً بين الملايين، والعلماء اليوم من المخترعين هم فئة محدودة، كما أن الأمية في الهند اليوم هي أكبر رقم في العالم، ولم يمنع هذا من أن تتقدم الهند وتتفوق، وهي لم تتفوق بملايين القراء ولكنها تفوقت بأعداد محددة من العلماء حصلوا على تأهيل علمي مع نوع من أخلاقيات العمل والمثابرة ولذا حققوا مرادهم.

كنت أريد أن أقول إن الأمية ليست جهلاً، هذا من جهة، وإنها ليست هي التي تعيق الأمة عن التقدم، ومؤشر المخطوطات العربية يؤكد أن أسلافنا وقد تقدموا وصرنا نفاخر بهم، إنما تقدموا بجهد أفراد صنعوا المعرفة بمثابرة وجهد مكثف صادق، وليس بطوابير من

الملايين، ولا شك أن الملايين ضرورية للمعارك الحربية، ولكنها ليست شرطاً للتقدم العلمي. والظن أن العرب متأخرون اليوم بسبب عموم الأمية يصبح وهماً وسذاجة في التحليل، والعلة ولا شك ليست من الأمية، والأمية لم تكن عائقاً في القديم ولا هي عائق في الحديث. ولكن العلة هي في الضعف التخصصي وضعف أخلاقيات العمل وحوافز الإبداع. وعلى رأسها عندنا تأتي القوامع التي تمارسها المؤسسة والمجتمع ضد التحفّز الذاتي مما يؤدي إلى تدجين الروح الإبداعية وترويضها حتى تصبح مثل سائر القطيع، وهذه سيرة ذاتية لكل واحد منا تقريباً وهي في الوقت ذاته سيرة اجتماعية عامة ومشهودة.

وأنا هنا أؤكد على معنى أساس وهو أن الأمية ليست رديف الجهل ولا هي نقيض الثقافة، ولكن البلوى هي في ما يسميه صديقنا الأستاذ إبراهيم البليهي بعلم الجهل وبنية التخلف، وهم عندي أنصاف المتعلمين الذين لا يتمتّعون بطيبة الأمية وتواضعها وفي الوقت ذاته لم يدركوا الوعي المعرفي وأخلاقيات الابتكار ويزيدون الأمر ظلامية بأن لا يتركوا الأمر لأهله وهذا هو التكدس الحضاري القاتل فعلاً، مع ما يصاحبه من قمع متصل لكل فكر ابتكاري.

الشفاهية الإلكترونية

الإنسان كائن شفاهي بالضرورة وتلعب الشفاهية دوراً عاطفياً جوهرياً في حياة الإنسان، وما كانت الكتابة منذ اختراعها المبكر سوى فعل مصاحب تخصص في وظائف محددة وتكاد تكون مصطنعة، بينما ظل الدافع الحكائي (الشفاهي) هو أقوى النوازع البشرية في فعل الاتصال والتواصل.

ومن أبرز الفعاليات البشرية هي فعالية (الحش) وهي الوظيفة اللغوية العجائبية التي صارت بمثابة اللازمة الاجتماعية والثقافية، وبدا الإنسان وكأنما هو معتمد اعتماداً نفسياً وحياتياً على هذه الوظيفة، على الرغم من الموقف السلبي من هذه الوظيفة، وما من أحد على المستوى الشخصي أو على مستوى الوعي الأخلاقي والسلوكي إلا ويتكلم ضد خاصية الحش ويذمها ويزيد في ذمها، وهي شرعياً تسمى بالغيبة، ويجري التحذير منها والتشديد في ذلك، ولا يختلف اثنان على حرمتها وسوئها، وفي الوقت ذاته لا يجتمع اثنان إلا وأخذا بتلابيب الحديث عن الآخرين الغائبين، ولعل المجتمع استعاض عن كلمة الغيبة بكلمة (الحش) من باب المواربة وتجنب التحدّي الصارخ لكلمة (الغيبة) وما تستحضره هذه الكلمة من نصوص شرعية وأخلاقية في التحذير منها، والناس لا يقولون

عن أنفسهم إننا أمضينا ليلتنا نغتاب البشر، ولكنهم سيقولون إننا كنا نحش بالناس وبفلان وفلان، والمعنى واحد ولكن إحدى الكلمتين مشحونة بالتحذير والأخرى تبدو عليها دلالات العبثية والتزجية.

ومع مصطلح الغيبة يأتي مصطلح النميمة، والنميمة كلمة مصاحبة لا تكتمل معاني الغيبة أو الحش إلا بها، وذلك أن النمام ينقل وقائع جلسات الغيبة ويوصلها إلى الضحايا، وهي فعاليات يشعر ممارسوها بلذة عجيبة في فعلها، وقد يصعب عليهم مقاومتها وكأنما هي وظيفة عضوية يتحرك بها اللسان ولا يرتاح صاحبها حتى يخرجها من سره، والوظيفتان معاً، الغيبة والنميمة، محرمتان بشدة ومذمومتان بتركيز قوي، وفي الآن ذاته هما مرغوبتان وممارستان، ولا يخلو منهما مجلس أو لقاء بين أكثر من شخص، ولا تستغني عنهما اللغة بوصفها قيمة تواصلية وتداولية، ولا المجتمع بوصفه منظومة علاقات وتعارف بين الفئات. وكل فرد اجتماعي هو في آن واحد مادة للحش وللنميمة مثلما هو صانع لهما حالاً بحال.

لم تزل الحال على هذا الشأن وهي حال ثقافية عريقة وشاملة، وحينما جاء الاختراع الحديث في الإنترنت، وسهل أمر الدخول إليها والتحرك اللغوي والتواصلي عبرها تعززت وسائل وفرص الحش والنميمة، فالإنترنت حلت محل النمام الشفاهي البسيط، وصارت هذه الأداة التكنولوجية ميداناً عريضاً للغيبة وللنميمة وبأوسع صورهما الممكنة، وإذا عثر امرؤ على معلومة سرية وتحركت عنده رغبات الفضح والنم سرى بها بجرة أصبع على الشاشة البيضاء وتحركت معه كل روابط التواصل لتعميم هذا السر ووضعه في صيغة تداولية غير نهائية.

هنا نشأ النمام التكنولوجي الحديث، ومعه زادت فرص ومجالات الحش والغيبة، وتسنّى للمغتاب والنمام أن يتستر وراء أقنعة كثيفة، أولها الاسم المستعار ومعها وسيلة التحرك غير المراقبة، مع توفر السلامة الاجتماعية والرسمية، على خلاف السابق في زمن الشفاهية البدائية حيث كان اكتشاف الفاعل ميسراً بسبب المباشرة والمحدودية الظرفية، مع ضيق مجال الدائرة التواصلية ومن ثم إمكانية حصرها، ثم إن النمام في حال الشفاهية البدائية يباشر العمل بشخصه وبحضوره التام، أما مع الإنترنت فإن الأقنعة من اليسر بحيث تشكّل واقياً حصيناً يسهل العملية من جهة ويفتح آفاق الحركة من جهة ثانية حتى لتتحرك الكلمات مثل حركة الرياح، تلك الحركة التي لا تدري كيف تأتي ولا إلى أي مدى ستذهب، وتصعب مهمة تتبُّعها حتى لتبدو بحكم الحركة التلقائية الذاتية التي لا يد لأحد عليها.

هذا منشط جديد للشفاهية الحديثة أو الشفاهية التكنولوجية، وعبرها يمارس الإنسان أحب وظائفه اللغوية وأبرزها.

تدخل هذه الفعالية متصاحبة مع علاقة الإنسان مع الزمن، فالمرء مع تعلقه بالحياة ورغبته الغالبة في أن يمتد به العمر إلا أنه وفي الوقت ذاته يشعر بطول الزمن ويعلن عن ذلك بتشكّيه من الطفش والملل، وهو يعالج هذا بالمجالسة والمحادثة، وهما معاً وظيفتان اجتماعيتان ونفسيتان، ولا غنى للمرء عنهما، ولو حرم منهما فإنه يشعر بالعذاب، ولذا صار أشد أنواع التعذيب في السجون هو السجن الانفرادي حيث الحرمان التام من المجالسة والمحادثة، أي الحرمان من الاحتياجات النفسية والاجتماعية. وقد أدرك صناع

الإنترنت هذه الحاجة البشرية، فاستغلّوها بأعلى درجات الاستغلال حيث فتحوا المجال لهذه الممارسة على أوسع باب، ولم يتردّد البشر في انتهاز فرصة الولوج عبر هذه الأبواب المشرعة، فصار لهم الميدان والمتنفّس لممارسة رغباتهم الفطرية والسرّية والوجدانية، في حين وجد تجار المواقع الألكترونية باباً للكسب والإعلان والتسويق عبر هذا التدافع البشري الذي يكثر أعداد المترددين ويقوي فرص تواصلهم وحضورهم مما هو كسب في تحشيد الناس ومن ثم تسريب الإعلانات إليهم.

ويدخل في هذا ما حدث للوقت عند الناس حيث لم يعد أحد يشتكي من نقص فرص تزجية الوقت، ولقد كنت مرة في حديث مع صديق من أصدقاء الطفولة، وكنت أسأله ماذا يعمل بوقته بعد أن تقاعد، فرد علي مباشرة قائلاً: إن الإنترنت لا تدع مجالا للطفش. وهذا أمر واقعي بما أن الإنترنت خلقت للناس قيماً تواصلية جديدة وعبر الشاشة تجري ممارسة كل الرغبات جيّدها وسلبيّها من دون رقيب وبأيسر السبل والتكاليف.

هذا نوع من الشفاهية يمثّل تنويعاً على سبل تعامل الإنسان مع اللغة، بدءا من لغة الحكي التداولية ذات الصيغة الفطرية، إلى لغة الكتاب ذات التركيب الاضطناعي، وهي تقوم على قانون التواصل البعيد زماناً ومكاناً، حيث لا يعلم كاتب الخط عن مآلات كلماته المنقوشة على الورق لا من حيث أبعادها الزمانية أو معابرها الجغرافية، ثم تأتي هذه الشفاهية الجديدة (التكنولوجية) وتفتح كل الآفاق بلا قيود من أي نوع، ويظل البشر يخترعون وسائل من بعد وسائل من أجل كسر حدود التواصل وفتح مجالات الممارسة

اللغوية، وهم يتخلّصون حتى من الرقيب الذاتي وذلك بالتحرر من الاسم الصريح واستخدام أسماء مستعارة تنزع كل شرط أو وازع أو تحرج، وهنا يظهر المخبوء ويفصح المرء عن أشرس ما فيه ويمارس نسقيته في فراغ كوني لا توقفه الرخص ولا الأذونات.

الفصل الرابع

حكايات الكتاب

بسكليت القراءة

استخدم والدي ـ رحمه اللّه ـ كل وسائله للبحث لي عن بسكليت جديدة، وقد كان عندي دراجة على مقدار جسمي من تلك التي يسمونها (أربعة وعشرين) وهو قياسها حيث تأتي متوسطة الحجم وتناسب صبيا بعمر الحادية عشرة من العمر، ولكن جسمي كبر مع الزمن والبسكليت تعرضت للإنهاك، ولذا فكر والدي بشراء دراجة جديدة لي بقياس (ستة وعشرين) وتعذّر الحصول عليها في سوق عنيزة ولذا أوصى والدي صديقا له من أهل بريدة كي يبحث لي عن واحدة هناك، ومرت أسابيع من دون خبر عن البسكليت، ولما جاء الخبر كان بالنفي إذ لم يجد صاحبنا إلا دراجات قديمة مستعملة وهذه لم تكن في وارد الاعتبار، ولذا كان لا بد من الانتظار إلى أن يتيسر رجل من الرياض ليأتيني بالدراجة الموعودة، وهذا ما صار بعد تكرم صديقنا البريداوي ـ رحمه اللّه ـ وتكفّل لوالدي بإحضار دراجة بتلك الصفات، وكم كانت فرحتي حينما جاء رجل إلى والدي في الدكان في العصرية وقال له خلٍّ عبد اللّه يذهب إلى موقف السيارات القادمة من الرياض ليأخذ درّاجته التي أحضرها سليمان المرزوق معه محقّقاً بذلك وصية أبي، لقد غمرتني الفرحة إلى درجة أنني لم أستطع ركوب الدراجة فجسمي يرتعش طرباً

ونشوة، ثم إنها تبدّت لي وكأنها أكبر من سنّي حيث كانت عالية الصهوة وضخمة القياس وكنت قد تعودت على الحجم الصغير أقفز عليها كالعصفور وأنط بها من فوق الصخور والطلعات ولا أبالي، أما هذه فهي جديدة وبراقة وكبيرة أيضاً وأنا بإزائها مجرد عصفور فعلاً، ولذا قطعت بها الطريق من الموقف حتى البيت وأنا أقودها سيراً على الأقدام، ولم أقلق لتعليقات كل من مرّ بي مستنكراً مشيي ويدي على البسكليت ومردفاً أنني لن أقوى عليها وكانت الاقتراحات تأتي بأن أبيعها، وجاءتني بعض العروض المغرية، ولكن أين لي أن أستجيب بعد طول حلم وسخاء الأمنيات والتصورات عن دراجة تأتي من الرياض كأجمل هدية يهديها لي والدي، ولم يكن بد من الاستعانة بعمي عبد الرحمن ـ رحمه اللّه ـ لكي يتولى تدريبي على ركوب الدراجة الكبيرة والمناورة فيها وكان ماهراً في هذه الأمور، وله خبرة مع الدراجات لا تخلو من طرافة. وكان عمي من أطرف الناس ونكته تشيع بين أهل عنيزة، ومنها ما يتعلق بالبسكليتات التي كانوا يطلقون عليها مسمى (حصان إبليس)، وكان هناك شيء من الكراهية لها ولذا وصفوها بهذه الصفة. وفي إحدى المرّات كان عمّي راكباً على صهوة دراجته وإذا به يسمع رجلاً يصرخ به ناهراً ومستنكراً: يا الغذامي... تركب حصان إبليس...؟!، فرد عليه مباشرة: لا يا عم... أبشرك لقد اشتريتها منه، وصارت الآن حصان الغذامي. ولقد شاع خبر هذه النكتة حتى بلغت للشيخ السعدي ـ رحمه اللّه ـ وأرسل من عنده رسولاً يقول لعمي مبروك عليك البسكليت.

لقد أخذ عمي يدربني على حصان الغذامي الذي لم يعد حصاناً لإبليس، ولم يفت وقت حتى صرت فارساً مغواراً على دراجتي

الجديدة وتغلبت على الحجم الكبير بعد أن تعلمت كيف أمدد قدمي وأدفع بطني باتجاه المقود. ومع تكرار العملية قهرت الصعوبة وامتطيت درّاجتي في حفلة فرح يومية أمام زملائي في المعهد وفي الحارة.

مرت سنة أو أكثر وأنا أعيش هذه الفرحة حتى جاء يوم طرق فيه باب بيتنا صديقي الأثير محمد السليم ـ رحمه اللّه ـ وقال لي إن الشاعر صالح الأحمد العثيمين عُيِّن ملحقاً ثقافياً خارج المملكة وإنه باع مكتبته بما تحمل من كنوز الكتب واشترتها منه مكتبة اليحيا والكتب كلها معروضة في تلك المكتبة، وهنا انطلقت مع محمد حيث رأينا كل ما يثير وما يغري من كتب التراث والدواوين والموسوعات، ولكن أين الفلوس...؟

هنا لم أجد بدّاً من التضحية بدرّاجتي الأثيرة على نفسي وعرضتها للبيع وهو الأمر الذي أسال لعاب كل الزملاء الذين كانوا يغبطونني على تلك البسكليت وتمت البيعة مع أول عرض حيث بعته بمائة وثمانين ريالاً بناقص عشرين ريالاً من بعد استعمالها أكثر من عام. ضحيت بالدراجة من أجل الكتب، وحينما سألني والدي كيف سأذهب للمعهد كل صباح علمت أن السؤال كان يضمر ملامة خفية لأنني كنت أتعلّل بأن الطريق إلى المعهد طويل وأن هذا يسبب لي التأخر عن الدروس، وكنت أقول هذا للضغط للحصول على دراجة كبيرة تذلل لي الطريق وتعينني على الدراسة، وقد حصلت على الدراجة فعلاً ولكنني الآن أعرضها للبيع. ولم يكن سؤال والدي إلا من باب إثارة النكتة وتذكيري بدعاويَّ السابقة وانفضاحها الآن. بعت البسكليت واستعضت بقيمتها كتباً قفزت بمكتبتي من بضعة كتب إلى

عشرات الكتب والمدوّنات والمجلّدات. وما زالت هذه الكتب عندي أعود إليها حتى اليوم، مقلباً في صفحاتها وأشم فيها رائحة الطفولة وأزقة المسهرية ـ حارتنا في عنيزة ـ وأرى ختم مكتبة اليحيا. ولكن اسم الشاعر صالح العثيمين ليس عليها، ويبدو أنه لم يكن معتاداً على كتابة اسمه على الكتاب، أما أنا فقد سجّلت اسمي على كل كتاب ومعه تاريخ الاقتناء، وما نسيت أبداً أنني في ذلك التاريخ قد شرعت في الذهاب إلى المعهد مشياً على الأقدام، ولم أفاتح والدي قط من وقتها عن الدراجات ولا عن مشوار المعهد ولا عن طول الطريق. لقد تحولت الدراجة من آلة للسير إلى ورقات من الكتب والتراث وتركتني في موعد مفتوح مع أجمل الأحلام، بدءاً من حلم البسكليت القادمة من العاصمة إلى حلم الشاعر المهاجر الذي ترك لنا كتبه واشتريناها بمبالغ تناسب قدرات جيوبنا. فالمائة والثمانون ريالاً أمدتني بعشرات من المجلدات والكتب التي تراوحت أسعارها ما بين خمسة ريالات للكتب المفردة وعشرين ريالاً لذوات الأجزاء المكررة والمجلّدة.

كانت تلك هي آخر دراجة امتلكتها من بعد تجربة ثلاث دراجات متعاقبة ختمتها هذه الدراجة التي لو علمت عن مكانها اليوم ـ إن كانت على قيد الوجود ـ لدفعت فيها الآلاف لكي أكرم مثواها وأكتب عليها كلمات الامتنان والمحبة لدراجة منحتني مكتبة ما زالت تؤنس بيتي وذاكرتي.

ريشة النعام

لست خبيراً بالورق ولكني صديق قديم للكتاب ومدمن على القراءة، ولست أعرف ما الذي يجعل صفحات كتاب (الكامل) للمبرد تتكسّر صفحاته بين يديّ كلما عنَّ لي أن أراجع مسألة من عنده، لقد اشتريت الكتاب بأجزائه الثلاثة عام 1963 وهو تاريخ سجّلته بيدي على صفحة الغلاف الداخلية وبالتاريخ الهجري 1383 باسمي الثلاثي مع كلمة عنيزة حيث اشتريت الكتاب من مكتبة اليحيا وأظنه كان من الكتب المستعملة وتحديداً من كتب الشاعر صالح الأحمد العثيمين، ولقد ذكرت من قبل قصة سفره وبيعه لكتبه، والكتاب من تحقيق زكي مبارك ومنشور في مصر عام 1936، وهذا تاريخ قديم فعلاً ولكنه ليس إلى الحد الذي تبدأ الصفحات فيه بالتلف، وما يعتري صفحاته من تلف يجعلني أتشبث بالكتاب أكثر وأكثر ولذا أعامله برفق شديد ولا أسمح لأي يد أخرى بأن تمتد إليه، ولقد وضعته في مكان آمن في رف المكتبة خشية أن تمتد إليه يد غير يدي فيجري لصفحاته ما لا تُحمد عقباه. إنه كتاب أثير عندي ربما بسببه أحببت المبرد وصارت مقولات المبرد جزءاً من مرجعياتي في عدد من أبحاثي، وعنه أخذت فكرة (تكاذيب الأعراب) وهي التي صارت أحد أهم أعمالي وشغلتني وشغلتها كثيراً.

لم يكن كتاب المبرد هو الوحيد الذي امتلكته في صغري ـ بعد أن بعت دراجتي الأثيرة على نفسي واشتريت بثمنها كتباً صارت عندي أساساً لذاكرتي الثقافية والقرائية، ويتزامن مع هذا الكتاب كتاب آخر له منزلة خاصة عندي، وهو كتاب (مروج الذهب)، وهو من حيث الشراء كان أسبق من كتاب المبرد بسنة بحسب التاريخ المسجل عليه، ولكن طباعته كانت أحدث فهو من مطبوعات 1958، ولست أرى أن ذلك هو السبب في متانة ورقه وحصانتها، والكتاب هذا بأجزائه الأربعة ما زال في وضع جيد وقوي على عكس كتاب المبرد الذي تعرضت أوراقه للتكسر وكأنه قطع من خشب وقراءته تحتاج إلى يد رحيمة تتلمس أنفاسها وهي تقلب ورقة على ورقة كي لا تزداد التكسرات وتصيب الكتاب بعطب عميق أو تقضي عليه تماماً.

يحتل الكتابان عندي منزلة خاصة أحدهما لمرضه وعلّته التي تجلب له رحمتي وشفقتي، والآخر لما فيه من ذكرى صارت بالنسبة لي بمثابة المفاجأة المذهلة. لقد قرأت مروج الذهب في صغري وأحببته وظل يترحل معي من عنيزة إلى الرياض، ثم عاد إلى عنيزة حينما ابتُعثت أنا إلى بريطانيا في سبعينيات القرن الماضي، وبعد عودتي استجمعت كل كتبي ووحَّدت مكانها معي في جدة ثم في الرياض، وإن كنت قد تنقلت في حياتي بين عشرة منازل فإن كتبي قد ترحّلت معي أيضاً بين عشر مكتبات. وكنت قد اتخذت طريقة رياضية أضبط فيها طريقة ترحيل الكتب بحيث تظل على نظامها من حيث الرفوف والمواقع من دون تغيير حفاظا على ترتيب علاقتي معها وعلى نظام خارطتها المكانية والبصرية ليستمر تعرفي على

مواقعها من دون خلل، وذلك بأن أضع لكل دولاب رقما ولكل رف حرفاً وتنتقل الكتب من بيت إلى بيت بحسب ما هو مسجّل على كراتين النقل من أرقام وحروف، وتكون رفوف هذا البيت مثل رفوف سابقه في الترقيم والتحريف، وهذا أراحني من مغبات الارتباك والتورط في التعرف من جديد على ما كنت أعرف من قبل.

بعد رحلاتي المتعددة وتقطعاتي عن بعض كتبي تفاجأت مرة وأنا أقلب في كتاب مروج الذهب أن وجدت ورقة صغيرة تتسلل وتسقط وأنا أقلّب في صفحات الجزء الثالث من الكتاب، وحينما كشفت عن الصفحة 357 تهاوت تلك الوريقة الصغيرة على الأرض فالتقطتها مباشرة ونظرت فيها وأخذت أقرأ ما كتب فيها وهو:

«في هذا اليوم المبارك الأغر أقف عند عتبة انتهاء سنه كامله لمصادقتي الكتب ومحادثتها ـ وتمام ربع سنة لممارستي الانتاج الأدبي الشعري. أرجو من اللّه عز وجل أن يدمني على القرائه اليومية وأن يهبني زيادة في محبتها وأن يرزقني ثقافة واسعة ومعرفة عامة واطلاعاً تاماً إنه سميع مجيب. عنيزة. ع. م. غ ـ وعلى رأس الوريقة كتب التاريخ 4/ 10/ 1383 (1963)».

لقد نقلت الورقة هنا بأخطائها الإملائية، وكنت حينها في السنة الأولى ثانوي، والورقة تقول لي إنني بدأت القراءة قبل سنة من تاريخ كتابة الورقة وهي السنة التي توافق تاريخ اقتنائي لمروج الذهب، ومع القراءة بدأت كتابة الشعر.

لا شك أنني ممتن لنفسي الآن أن تركت قول الشعر لأنني اكتشفت في وقت معقول أنني لست شاعراً وأن شعري من النوع الوسط، وهذه لحظة مهمة في حياتي تقرر بها مسار تفكيري

واتجهت إلى ما أتقن بدلاً من الدوران حول ما لا أتقن، ولكنني أتذكّر فعلاً أنني كنت أدفع بنفسي لقول الشعر وأطمع لأن أكون شاعراً وأوشكت أن أغلط غلطة عظمى وأنشر ديواني، ولو فعلت ذلك لندمت اليوم ندماً لا مرد له حيث سأكشف عن أضعف ما في قدراتي وأظل عالقا بغلطتي تلك، ولكن اللّه ستر.

ولي أن أقول إنني قد فرحت فرحاً طفولياً برؤية ورقتي تلك، ورأيت فيها طفولتي عياناً بياناً من حيث خطي وقلمي وأنفاسي وأيضاً عبر أخطائي الإملائية في وقت ما كان يصح لي أن أخطئ في الإملاء، وذلك لأن التعليم في المعهد العلمي كان قوياً والمحاسبة فيه كانت صارمة، ومع ذلك جاءت التاء المربوطة وكأنها هاء مثلما جاءت همزة كلمة القراءة على كرسي، ولا أعرف كيف جاءت عبارة (أن يدمني) بدلاً من يديم علي أو يديمني.

هي أخطاء جميلة وأجمل منها خطي ـ على قبحه الأزلي الذي عرفت به نفسي وعرفني به صحبي وأساتذتي، حتى إن الشيخ العثيمين رحمه اللّه اقترح علي مرة أن أغير قلمي، وكان بهذا يوحي لي بأدبه الجم وتربويته العالية أن خطي قبيح ويقول لي تلميحاً حاول تحسين خطك، وهذا ما فهمته من اقتراحه لي بتغيير نوعية القلم والحبر، كأنما يقول جرِّب حظك مع الأقلام والأحبار إن كنت يئست من أصابعك. كنت فهمت مراد الشيخ وكبرت رقة الملاحظة وأدب التوصيل من دون تجريح ولا تأليم.

هي ذاكرة تتسلل وتبقى، ولهذه الورقة عندي معناها الخاص ومقامها الخاص، وهكذا تأتي الكتب لتكون مصدراً لربيع الروح ونهراً من الذكريات وكنزاً من الأنفاس والعرق والإلهام إضافة إلى

كونها معرفة حية تظل معك وتدفع بك لتحقّق معاني وجودك وصيغة حياتك .

٤/ ١٠/ ١٢٨٢هـ

في هذا اليوم المبارك الأغر اتممت

[illegible] أثناء سنة كاملة

لمصادر الكتب تحقيقا ودرسها

وتمام يومي سنة لمدارسي للإتباع

الأزلي الشرف . أرجو أمده الله

بحر وصل امد يدمني على القراءة الدينية

وانه يسير زيادة في حبها وامد بزرقي

ومعرفة عامة عن اطلاعا

ثقافة واسعة

ومناجية سميع مجيب . [illegible]

* مروج الذهب ٢/ ٢٥٧

تقرأ الكتب...؟

إلى الروح الطاهرة: محمد السليم

نتقابل في الشارع. . . وكنت قد عدت أدراجي من وسط السوق بعد أن حصلت على نسخة جديدة من ديوان المتنبي جلبها لي أحد معارفنا الآتين من الرياض، وإذ كنت أسير متأبطاً كتابي إذا بمحمد السليم يخرج من الزقاق الفرعي، ومن عادتي أن يراه ويراني في الحارة وفي المعهد وفي الأسواق ونكتفي بنظرة أو سلام عابر وينتهي الأمر عند ذاك، ولكنه هذه المرة كان يديم النظر إليَّ ويركز على الكتاب الملتفّة عليه يدي وكأنه ملتحم بي، ينظر محمد ويعيد النظر ثم يتوقّف، ويسألني قبل السلام والكلام: (هل تقرأ كتب. . . !!)، قالها باللهجة العامية السريعة، فقلت له: نعم.

عندها غيّر محمد وجهته وأخذ يسير معي، كان ذلك في منتصف عام 1381 (1961) ومن يومها صارت الصحبة وصارت المحبة وصار محمد الصديق الذي ما اهتزت صداقته معي قط.

كان محمد من قراء الكتب المدمنين وكان يعيش هوايته هذه لوحده ولم يكن أحد من زملائه يشاركه الهواية ذاتها وحينما رأى الكتاب معي أدرك أنه قد اكتشف صديقه الذي يحلم به، ولقد كنا

حينها نعيش معاً في حارة المسهرية بعنيزة، تلك الحارة التي تضم بيت أستاذنا وشيخنا عبد الرحمن البطحي وكان بيتنا يقع في الوسط بين بيت البطحي وبيت السليم، وفي هذه الحارة كانت الذكريات التي تجمع مجالس الثقافة في منزل شيخنا وتجمع حركة مرور من نوع خاص جدّاً، وهي مرور الكتب في ما بين بيتنا وبيت السليم حيث صارت الكتب تدور في حركة متّصلة أصبحت معها مكتبتي المنزلية ومكتبة محمد خزينة واحدة، ولم تعد كتب أحد منا محصورة لصاحبها، يأخذ ما ينقصه مني وآخذ ما ينقصني من مكتبته، وإذا فرغ من كتاب أعاده لي ليأخذ غيره مثلما أفعل تماماً، ثم كانت وجهتنا في ما ليس عندنا من الكتب إلى المكتبة السعودية، وهي مكتبة أنشأها الوزير عبد اللّه السليمان وفتحها للعموم، وكنت أنا ومحمد من روادها الدائمين حيث نشأت بيننا منافسة محتدمة في القراءة، وكنت أنظر في دفتر الإعارات في المكتبة وأتابع اسم محمد السليم لأرى متى استعار الكتاب ومتى أعاده، لكي أقارن بين سرعته في القراءة وسرعتي، وهذا ما شكّل حافزاً عندي وعنده لكي نطوي ورقات الكتب طيّاً، حتى قرأنا كتاب (الأغاني) و(نفح الطيب) و(النقائض) و(العقد الفريد) و(الحيوان)، وكتب التاريخ كـ(الكامل) و(البداية والنهاية) في أيام معدودات لكل واحد منها. وكانت لقاءاتنا مناقشات في الكتب، وإذا احتاج أحد منا للتغيير إلى السواليف أو إلى الترويح بحث له عن شخص آخر، إذ ما بيني وبين محمد هو الكتب وما في بطونها، ولا نعرف لغير الجد إذا اجتمعنا.

كنت مرة في رحلة إلى الطائف في زيارة لأعمامي صيف 1962 حيث صرفت هناك كل ما معي من ريالات معدودة على شراء الكتب

ومن بينها دواوين الشاعر العربي سليمان العيسى ونزار قباني، ولقد أخذت نسختين من كل ديوان للعيسى لي ولمحمد، ثم حينما عدت لعنيزة وجدت محمدا قد سافر من بعدي إلى البحرين مع أحد أقاربه وإذا به قد اشترى أيضا دواوين سليمان العيسى مكررة له ولي، ولم تك هذه مفاجأة لي ولا له فكل منا يعرف أن هذا ما سيفعله صاحبه ولا غرابة، وربما تكون الغرابة بل الفاجعة في كل معاني الصداقة لو أن أحدنا لم يفعل هذا.

ظلت الكتب بيني وبينه، وما زالت مكتبتي تختزن نسخاً من كتب كانت في الأصل في مكتبة محمد.

تعوّدت علينا حارة المسهرية تلك الحارة التي لم يبق منها في نفوسنا غير صورتها الخيالية، لقد هدموا الحارة وساووها بالأرض، وتركوها برحة مفتوحة لا معالم عليها ولكن صورتها ما زالت حيّة في نفوسنا إنها حارة محمد وحارة عبد الرحمن البطحي وحارة الذكريات، ومنها كنا نتحرك معاً كل صباح متجهين نحو المعهد العلمي مشياً على الأقدام، ومرة قرّرنا السير نحو الوادي (وادي الرمة) ويبعد عن عنيزة عشرة كيلومترات، نسيرها على الأقدام، ونمضي في الوادي يوماً كاملاً نتحرك فيه ما بين نخيل خال محمد ونخيل خالي إبراهيم، ثم نعود في المساء على أقدامنا أيضاً، ولا بد أن حساب ما نمشيه في يوم كذاك سيتجاوز الثلاثين كيلومتراً في مجمله، ولم نك نشعر بالتعب، لقد كانت الكتب هي حاملتنا وهي مسافتنا وهي لغتنا.

كان محمد شاعراً، ويأتيه إلهامه الشعري في أوقات مباغتة. ومرة كنا نسير متجهين إلى الوادي، وإذا به يتنحى إلى طرف الطريق

ويأخذه الهاجس الشعري وفي خلال ساعة واحدة خرج بقصيدة تجاوزت الثمانين بيتاً، كانت قصيدة قومية تلتهب عروبة وحسّاً ووطنية. وبعد أن تحرك مسار أقدامنا أخذ يرددها بصوت تشهد عليه شعاب الوادي وسحنات الأرض وكنت أقول له ارفع صوتك فلربما سرى الصوت حتى ليصل إلى سليمان العيسى في دمشق ليعرف أن في بطن وادي الرمة شباباً يقرأون دواوينه ويقولون شعراً مثل شعره وينتفضون عروبة ووطنية مثل وطنيته.

كانت القصائد تأتي على لسان محمد وكأنها مطر يتدفق لا يرده حاجز ولا تقف في وجهه معوقات، ولكن محمداً ترك الشعر بعد ذلك واتجه لدراسة الحقوق والقانون، وسافر إلى دمشق في منتصف الستينات للدراسة في كلية الحقوق هناك، وكان يأمل أن يرى حبيبنا كلنا سليمان العيسى هناك، وكم كانت صدمته عنيفة حينما اكتشف أن شاعرنا لم يعد هناك، وهذه هي أول كلمة قالها لي في أول رسالة يرسلها إلي: (صديقنا ليس هنا)، وقد كان يعرف أنني كنت أغبطه على تلك الفرصة غير أنها فرصة لم تتحقق.

ظل محمد محبّاً للشعر ومخلصاً للعروبة والوطنية حتى وقد ترك كتابة الشعر وقوله، وظلت صداقتنا عامرة مثلما ظلت مكتبة كل واحد منا تحت تصرف الآخر.

ظل كل شيء جميلاً وسعيداً. . . حتى جاءتني مكالمة من أخي علي، وكنت في بيتي مرتاحاً وعلى وشك أن أنام عند التاسعة مساء، وإذا بالهاتف يأتي ليقول لي: هل تعلم عن محمد السليم. . . ؟

خفت من السؤال وأحسست بجفاف في ريقي حتى تعثّرت كلماتي، وهنا سمعت صوت أخي يقول: رحمه اللّه. . . !

راح محمد. . . . انتقل إلى ربه وتعود تلك النفس الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

ضاعت الكلمات، وأكملها أخي علي قائلاً سأمر عليك غداً عند التاسعة ونذهب إلى عنيزة للصلاة عليه، سمعت كلمات أخي بصعوبة حتى لم أستطع أن أردّ عليه بنعم، ولم أردّ عليه وهو يسألني إن كان هذا التوقيت مناسباً لي أم لا.

ذهبت إلى هناك حيث كانت الصلاة في جامع الشيخ العثيمين كنت أصلّي على جنازة محمد وكنت أحس بوالدي وبوالدتي وبالشيخ السعدي والشيخ العثيمين، تلك وجوه جمعها هذا الجامع، تذكرت نفسي وأنا صغير بجانب والدي في صلاة الجمعة وتذكرت آخر صلاة لي في هذا الجامع وقد كانت صلاتي على والدتي، وها هو محمد معهم في رحلة الخلد والنقاء. رحمة اللّه على الجميع.

في هذا الجامع الذي تفتقت أذهاننا فيه على صوت الشيخ السعدي، وكم كان محمد يحب ذلك الشيخ. وحينما كان محمد طفلاً كان وجه الشيخ أكثر الوجوه تقلباً في ضميره، وكان يقول لي بعد أن كبرنا معا كيف كان للشيخ معنى خاص عنده، معنى من صنع الطفولة وتهيآتها العميقة، وها هو محمد يودعنا في محراب الشيخ وفي مسجده وها هو يدفن في عنيزة مختلطا بطينها ومائها وعروق نخيلها.

رحمك اللّه أيها الحبيب. وأنت الباقي في القلب لا تزول.

كتاب على كتاب

من أعرق الأصول العلمية هو القول على القول، وذلك حينما يأتي رأي أو قول لمجتهد فيثير ذلك شهية المعاصرين واللاحقين على شرح هذا القول أو تأويله أو معارضته، وهذا باب علمي عريض تأسّست عليه المعرفة البشرية عبر التراكم والتتابع وتلك هي الشجرة العلمية البشرية، وكتب التراث تشهد على هذه التفاعلية الحية، وكثيراً ما ترى الكتاب الأصل قد تفرع إلى كتب عبر الحواشي التي لا تقف عند حد إذ يتبع الحاشية حاشية أخرى، أي حاشية على الحاشية. وتنطلق من المتن الأصل لمؤلف معين إلى شرح يقوم به تابع له ثم يأتي من يضع حاشية على المتن والشرح معاً. وقد تجد من يضع حاشية على حاشية، وربما اكتشف أحد هؤلاء أنه قد وضع كتابا أكثر اتساعاً وإحاطة من الأصل، كما جرى مع كتاب (القاموس) للفيروزأبادي حيث هَمَّ الزبيدي بشرحه ووضع حاشية تحت نية شرح القاموس فإذا به ينتهي إلى كتاب ضخم سماه (تاج العروس)، وصار هذا معجماً لغوياً قائماً بذاته، وهو في الأصل حاشية وشرح للمتن الأول.

ولقد حدث لي تجربة حية ومباشرة مع هذه العملية العلمية الحية وذلك في مجلس الدرس مع الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه

اللّه ـ وعندي وبخط يدي شروحات له كان يمليها علينا على متون الكتب، ومنها شروحات له على كتاب (شرح ابن عقيل) في النحو، وكان يدرسنا النحو في السنة الثالثة المتوسطة، والمقرر هو شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. وفي مطلع العام وزّعوا علينا الجزء الأول من الكتاب وهو متن ضخم يغطي أهم المداخل النحوية، وكان الكتاب مغلفاً بغلاف ورقي، ومن حرص الشيخ على الكتاب وعلى مستقبلنا مع ما في الكتاب من علم وما يخططه الشيخ من نية في الشروحات والتعليقات. فقد قام بجمع الكتب من أيدينا ثم أرسلها مع أحد من يثق بهم إلى الرياض وذلك من أجل تجليدها، وقد جلسنا ندرس لمدة أسبوعين من دون كتب انتظاراً لعودة كتبنا من الرياض بعد تجليدها. ولقد نبهنا الشيخ إلى كتابة اسم كل واحد منا على كتابه حتى لا تختلط النسخ بعد عودتها مجلدة من الرياض. وهذا ما صار. وما زلت أحتفظ بالكتاب مجلداً وعليه اسمي وتاريخ تسلمي للكتاب (1382 / 1962). وفي داخل الصفحات كانت تعليقات الشيخ التي كان يمليها علينا ونحن نكتب، وما زلت أرجع إليها كلما احتجت إلى فك أسرار مسألة لغوية أو نحوية. وكان من فضل الشيخ علينا أنه رجل جاد ومهيب حتى لم نكن نجرؤ على العبث في الفصل حين حضوره، بل إنك ليصعب عليك أن تنطلق في الهواجس أو الغفلة عند الدرس فهو ـ رحمه اللّه ـ على درجة من التيقظ والتنبه حتى ليلاحظك فيما لو سهوت أو سرحت ويحتال حينها بحيلة تعيدك إلى الانتباه وذلك بان يطرح عليك سؤالاً مفاجئاً أو أن يركز نظره عليك. وهذا ما جعلنا على حال من الحضور الذهني التام معه. ولقد كان النظام الدراسي في تلك الفترة أننا

ندرس عاماً دراسياً كاملاً من دون امتحانات شهرية ولا نصفية، وعندنا امتحان واحد في نهاية العام. ومن ديدننا أننا نهمل في المراجعة ولا نشرع في المذاكرة إلا حين اقتراب موعد الامتحان بشهر تقريباً، وهو الشهر الوحيد في السنة كلّها الذي نتعامل فيه مع المقررات مذاكرة وتمعّناً للتجهيز ليوم الحسم. وهنا أذكر أنني استبعدت درسين من مذاكرتي، أحدهما مادة العروض، حيث إنني أتقنت البحور الشعرية والأوزان من أول درس عرفت فيه فك لغز الإيقاعات الشعرية بسبب مهارة عند أستاذنا عبد اللّه الحسن البريكان ـ رحمه اللّه ـ في إيصال رسالة الخليل بن أحمد لنا حول موازين الشعر. أما المادة الثانية فكانت مادة النحو وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وما كنت بحاجة لمذاكرتها وما كنت خائفاً من الامتحان فيها ـ مع صعوبتها الكبرى خاصة على سن فتيان في الخامسة عشرة من أعمارهم، وذلك لأن طريقة الشيخ في التدريس وفي جدية التعامل كانت قد ثبتت المواضيع في نفوسنا. وما زلت أتذكر الكلمات وأرى في ذاكرتي البصرية الصفحات واللفتات، حتى بعد مرور خمسين عاماً على مجلس الدرس مع الشيخ، وهذا الكتاب الذي درسناه في المرحلة المتوسطة تحوّل الآن ليكون مادة تخصصية جامعية ويرى الطلبة اليوم أنه صعب ومعقد. لقد صرت أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام وأتعجّب فعلاً كيف كنا نتحمّل كل ذلك الكمّ من المعرفة التخصّصية ومع أستاذ مهيب بحجم الشيخ ومقامه.

ومثل شيخنا العثيمين كان شيخنا علي الزامل ـ رحمه اللّه ـ وهو رجل وصفه عارفوه بأنه أنحى أهل زمانه وذلك لشدة تبحره في النحو واللغة، إضافة إلى علمه الشرعي وثقافته الواسعة حتى في علم

العروض. وكنت أجلس في مجلسه في العصريات وأنهل من علمه اللغوي والشرعي. أما في المعهد فكان يدرسنا أصول التفسير، إضافة إلى التفسير، ويتبع أسلوب الرواد من أهل العلم بإملاء شروحاته وملاحظاته على المادة، وشروحاته عندي لما تزل، ومنها نهلت وما زلت أنهل علماً عظيماً وفقهاً عميقاً في تفكيك المصطلحات والمفاهيم.

وفي آخر سنة لنا في المعهد كان موعدنا مع مادة (أصول الفقه) ومع الشيخ العثيمين، وهذه مادة كانت من أحب المواد إلى نفسي، ومنها ومن الشيخ تعلمت أصول المعرفة وزادت فتنتي بالمصطلحات والنظريات والمفاهيم منذ ذلك الزمن. وكان الكتاب المقرر هو كتاب (شرح الورقات في أصول الفقه) لأبي المعالي الجويني، وهو إمام شافعي ألّف هذا الكتاب المعمّق والمكثّف، وهو ورقات من حيث العدد ولكنه كنز معرفي عميق شغل من جاء بعده، وأولهم جلال الدين المحلي، وهو عالم شافعي آخر شرح الورقات، وكان من حسن تدبير رئاسة المعاهد العلمية أن قررت لنا هذا الكتاب الكنز، ثم صار لنا حظ عظيم حيث درسناه على يد شيخ محب للمصطلحات ومفتون بالأصول المعرفية ولغة المفاهيم، وهنا كان الشيخ محمد يشرح لنا ويملي علينا تعليقاته. ولن أنسى أبداً درسه الأول عن مفهوم (التقليد) وكيف تبحر في هذه المفردة لغوياً من وضع القلادة على العنق، وراح يطيل في هذه القضية حتى صرت أتبيّن عملياً كيف هي حال الشخص إذا كان مقلّداً وكأنما يقاد بالحبل مثل الدابة.

أخذ المعنى اللغوي من نفسي مأخذاً حساساً جدّاً، وظللت أتصور القلادة في الرقبة، ولم يتركني الشيخ مع خيالي هذا حتى

شرع في كشف المعاني الاصطلاحية للتقليد، وهو يأتي بتفسيرين للمعنى أحدهما: هو قول الرأي بلا حجة، والثاني: قبول قول القائل وأنت لا تدري من أين قاله ولا تعلم مأخذه في ذلك.

كان الشيخ يقول لنا هذا ويفعله معنا عملياً، ولذلك فإن ديدن الدرس عنده أن تقول الأفكار على الدليل والبرهنة، ونقف وقفات طويلة وممتدة على الأسئلة ومتابعة السؤال بالسؤال حتى نستنفد كل ما في طاقتنا من المحاجة والتساؤل. ولم يكن الشيخ يتردد في إيقاف أحدنا مدة من الزمن والشيخ يطرح عليك السؤال من بعد السؤال وأنت واقف بين زملائك وهم جلوس ورأسك يدور بك ولسانك يلاحق الإجابات التي يفندها الشيخ واحدة بعد أخرى ليعود بك إلى نقطة البداية، وإذا احترت واحتار من معك في القاعة تكلّم الشيخ، وقد يشفي غليلك من نفسك حينما يكشف لك أن المسألة هذه لا جواب عليها، أو أنها تحمل أجوبة متعددة أو أنها مما توقف عندها العلماء. من مثل مسألة (التعارض) بين مسألتين، وبأيهما نأخذ، وفيها أربع مراتب ـ كما أملى علينا الشيخ من بعد حوار طويل، وكنت أنا موضع التجربة في تلك المسألة، ولذا رسخت في ذهني بعد أن أوقفني ساعة في النقاش من بين كل زملائي ـ والمراتب الأربع المسجلة عندي على ورقي وبإملاء الشيخ هي:

1 ـ الجمع بينهما إن أمكن.

2 ـ أن نعمل بالمتأخر إذا لم يمكن الجمع وعلمنا بالتاريخ.

3 ـ أن نعمل بالراجح إذا لم يمكن الجمع ولم نعلم التاريخ.

4 ـ التوقف.

لقد كانت المسألة التي طرحها علي تستدعي المرتبة الرابعة، وكان الشيخ في ذلك يحاول تدريبنا على المواضعة العلمية في خوض تجربة الأسئلة ومعاينة كافة الاحتمالات الدلالية والاستنتاجية.

هذه كلّها تجربة حيّة عشتها مع شيوخ أجلاء في ممارسة الفعالية العلمية وبناء الهرم العلمي، أو ما سمّيته هنا الكتاب على الكتاب، والقول على القول.

وأخيراً، أشير إلى أن الشيخ ـ رحمه اللّه ـ قد أخرج بعد ذلك كتاباً وافياً بشرح نظم الورقات في أصول الفقه، حوى المسائل الأصولية كلها. ولكنني ظللت وفيّاً لكتابي الخاص وعليه تعليقات بقلمي من إملاء الشيخ، وأحسّها تحمل عرق جبيني وأنفاس حياتي وتعيدنا إلى سنوات الدراسة في المعهد العلمي وتحديداً عام 1964 حيث كان الدرس وكانت السنة النهائية في المعهد قبل النقلة إلى الرياض في كلية اللغة العربية. وعلى مدى السنين ظل الكتاب يصحبني ويرفدني معرفياً ونظرياً، في علم هو من أعظم علوم التفكير المعرفي والمنهجي، وأنا مدين في وعيي النظري لهذا التأسيس المبكر في حياتي.

شيمته الكتب

كنا في الثامن من مارس 1972 حيث خرجنا معاً أنا ومحمد الهدلق من المكتبة المركزية في جامعة أدنبره / اسكوتلاندا، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً حيث هو وقت الغداء والراحة لمدة ساعة حتى الواحدة، ولكن محمد الهدلق تلك المرة لم يكن في خطته غداء ولا قهوة، وقد أُخبر بالأمس عن مكتبة تجارية تبيع الكتب المستعملة وذكرها لي، فقرّرنا معاً أن نستغل ساعة الراحة هذه بزيارة تلك المكتبة، وهناك وجد كل واحد منا بعض ضالته، حيث تسللت أيدينا وسط رفوف الكتب القديمة ما بين مسرحيات شكسبير وروايات ديكنز وأعمال ديفيد هيوم، ولهذا الفيلسوف نكهة خاصة في مدينة أدنبره فهو اسكتلندي، وتحمل إحدى بنايات الجامعة اسمه: برج هيوم، وبه وبغيره تكدست أيدينا كتباً ومعها حماسة رفيعة في نفوسنا، كيف لا، وهي كتب مهمة جدّاً وبطبعات عريقة وتاريخية، وفي الوقت ذاته هي رخيصة، وستعمر مكتباتنا الخاصة بهذا المهم والرخيص. ولم أنس منظرنا ونحن عائدان من رحلة المعرفة تلك، ومحمد الهدلق يمسك بيده كتاباً من هذه الكتب وهو يسير على طرف الرصيف، ويفحص سعره الذي كان مجرد (بنسات) ولم يصل حتى لربع جنيه، ولم يفته أن يقول لي: انظر إلى هذا

السعر وإلى هذا الكتاب، وإلى هذا وإلى ذاك، ويعرض الكتب واحداً واحداً، ثم يقول: إن الواحد منها بسعر كوب من القهوة، وماذا لو أننا اشترينا قهوة بدلاً من الكتاب، ولا ينسى محمد هنا أن يقارن بين مصير كوب القهوة بعد استهلاكه حيث سينتهي عبر مسارب الصرف الصحي بعد دقائق من شربه، مقارنة بالكتاب ومصيره عبر سراديب الدماغ حيث لا يذوب ولا يتسرب.

كنت أتماهى معه وأقول له: نعم، نعم، مدركاً أنني أنا وهو كنا نلاعب أنفسنا ونسلّيها عن ساعة راحة أهدرناها ولم نتغد ولم نحتس قهوتنا، وعدنا إلى عملنا في المكتبة المركزية، وواصنا الجد بالجد والكتاب بالكتاب.

أتذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها،

وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنكليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتنا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب) وراح محمد يشتري منها بنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها. ولن أنسى الرجل الإنكليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في أدنبره، إنها بعيدة بعيدة، وهذه

هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قولي عن الهدلق وأدنبره.

وهكذا هو الهدلق رجل تتذكره الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات، وإن كان هذا حدث لنا معاً في مطلع السبعينات من القرن الماضي أثناء بعثتنا في بريطانيا إلا أن علاقتي بمحمد قد ابتدأت قبل ذلك بعشر سنوات، وعلى التحديد عام 1385 / 1965، وهي أول سنة لي في الرياض في كلية اللغة العربية وقد سبقني محمد إليها بثلاث سنوات، ولكنه كان صديقا لابن خالتي منذ زمنهما معاً في شقراء، وقد جاء لزيارتنا في منزلنا الطالبي، ومن أول لحظة لقاء بدأ بيننا نقاش في الكتب والثقافة، وكنت حينها أقرأ في ثلاثية نجيب محفوظ، وكانت أحداث الروايات تتدفق على لساني بين زملاء السكن، وهذا ما فتح باباً للكلام مع الهدلق الذي كشف لنا وقتها عن ثقافته وبصيرته في الكتب والأدب. ومع قراءتي لمحفوظ وقتها وتماهي الهدلق في الحديث عنه وعن العقاد وزكي ونجيب محمود، فإنه قد لاحظ أنني أشتكي من دموع في عينيَّ، ولما أبلغته أنني راجعت الدكتور الخولي، بادر محمد وقال بلهجة مصرية متقنة: عندك تراخوما، عاوز عملية، وقد تعجبت من تقليده للكلام ثم من كشفه ما قاله لي الطبيب، مما جعلني أسأله عما إذا كان حاضراً في العيادة حينما كشف عليَّ الطبيب، فقال لا. ولكن هذا هو ما يجده الناس عند ذلك الطبيب، وعيادته جنوب البطحاء مسرح لهذا كله، تلك لحظة ظلّت بصورها الجادة منها والهازلة تمثّل لي صورة محمد الهدلق المستمرة معي، فهو رجل من أشد الناس وأقواهم جدّية وصدقاً وحرصاً، وفي الوقت ذاته هو إنسان ظريف ومتحدّث مرن ومزاح عميق المعنى وراسخ الرؤية.

عرفت محمد الهدلق على مدى خمسة وأربعين عاماً، وعرفه عدد غيري من زملاء البعثة في بريطانيا، وخبرته أنا على مدى هذه السنين كلها، وكان أحسن ما في الأحسن الشيم ـ باستعارة كلمات المتنبي ـ وشيمة الهدلق هي الكتاب والكتب. وما مرّ عليّ يوم احتجت فيه لكتاب لا أجده في مكتبتي إلا وجدته عند الهدلق، ولا أحتاج إلا لمكالمة هاتفية قصيرة ويأتيني الكتاب إلى حيث أوجد، ولذا فإن مكتبة الهدلق الخاصة صارت عندي امتداداً مكانياً ومعرفياً لمكتبتي، وأخص بذلك كتب التراث. واسم محمد الهدلق يتوج كلمات الشكر في عدد من كتبي، وصورته الذهنية وجرس اسمه يرن في ذاكرتي كواحد من أعز من عرفت وأصدق من زاملت، وقف بوفاء بجانبي وجوانب الزملاء كلهم، فهو همزة الوصل في قصصنا كلها، وهو الذي يجمع صفحات الذكريات كلها بأنواعها كلها المازح الهازل منها والجاد الصارم.

كنت أقول له ـ وما أزال ـ إنك يا محمد تجني على نفسك وعلى العلم والأكاديمية حينما تتقاعس عن جمع بحوثك في كتب تبوّبها بحسب انتظام البحوث. وكان يرد عليّ قابلاً ومصادقاً على قولي. وظلّ وفيّاً لهذا الجواب على مدى سنوات وما زال وفيّاً في جوابه وأنا وفيّ في ملاحظتي، ولكن: لا كتب، ولا اسم لمحمد الهدلق على أي كتاب مطبوع، وتظل بحوثه حبيسة الدوريات والمجلات العلمية، ويظل هو وفيّاً ومخلصاً في تكرار الجواب كلما كررت أنا التساؤل. ولكني أقول إن محمد الهدلق لو طبع بحوثه في كتب لصارت كتبه مراجع من أهم مراجع الجامعات العربية في مجال التراث النقدي، وهو مرجع علمي موثوق ومعتبر في موضوع النقد

العربي القديم، وليته يتم معروفه مع العلم والثقافة ويحسم أمره ويطبع كتبه. ألا تفعل يا محمد وأرجو أن تكرم محبتي لك وتقديري لك بقبول طلبي هذا وتحقيق وعدك الذي ظللت وفيّاً له.

وكم كنت أرى محمد الهدلق وكأنما هو الوجه الآخر لي، الوجه المغاير، وليس هذا بمعنى النقيض ولا بمعنى السالب، ولكنه الصورة المعاكسة، أي أنني أنا رجل مندفع لا تهمني حسابات الخطوة وأقول فكرتي بلا تحفّظ ولا تحسّب، بينما هو رجل دقيق ومدقق في خطوه وفي نظرته، وهذا ما يجعلني أشعر دائماً بحاجتي لرأيه لأجعل من مشورته صمام ضبط ووزن لحركتي، وأنا الرجل الذي ديدنه المغامرة والاقتحام وصاحبي ديدنه الحكمة والتروي. ومن هاتين الخصلتين المتغايرتين، ولا أقول المتناقضتين، نشأت حالة من الثقة في نفسي تجاه صاحبي، خاصة أنه رجل مخلص وصادق ولا يجامل في رأيه ولا يحسد أو يغار أو يبخل، وتلك عوامل تشجيع وإغراء. وفي آخر محاضرة عامة لي في الجامعة كان محمد الهدلق يجلس في الصفوف الخلفية من القاعة، ولم ألحظ هذا ولكن بعض الزملاء ذكروا لي ذلك قبل صعودي إلى المنصة، وما كان ذاك بموضع سؤال عندي. وصارت المحاضرة وانتهت وهو لما يزل في موقعه الخلفي. وبعد ذلك بيومين قابلته في ممر الكلية، وحينها بادرني بالثناء على المحاضرة، وقال لي إنه كان متخوفاً منها حتى إنه رفض تولي إدارة الجلسة تلك لأن الموضوع عن القبائلية، وخشي من حساسية الموضوع وانفجار الموقف لما في الأمر من محاذير، ولذا حضر محاذراً ومتخوفاً على صاحبه مما قد يحدث. ولكنه وهو يقول هذا راح يثني على المحاضرة ويثني على طريقة

العرض حيث رآه يعتمد أسلوباً موضوعياً محايداً لا يسيء لأحد، وظل يهنئني على حصافة العرض وحصن التخلص مما عكس مخاوفه وبدّد شكوكه، وجعله يغيّر رأيه في المحاضرة.

قال هذا ولم يفتني أن اصطاد اللحظة بنكتة أو نكتتين معه، مع كل ما في نفسي من تقدير له على وضوحه من جهة، وعلى صدقه مع نفسه من جهة أخرى، حيث لم يجامل الصداقة على حساب الموقف، ثم ختمها بأن ذكر لي قصة رفضه لرئاسة الجلسة، وقال كامل قصته معي ومع المحاضرة ورأيه النهائي فيها.

هذه صورة لمحمد الهدلق الصادق من جهة والصارم من جهة ثانية والواضح من جهة ثالثة، وهو الرجل النقي في قوله وفي تقديمه لنفسه.

ولن أختم حديثي قبل أن أشير إلى أن محمد الهدلق يقف وراء مجيئي إلى جامعة الملك سعود، ولولا موقف خاص وشجاع منه لتعطل أمر انتقالي إلى الجامعة، ولم أكن أعرف أي شيء عن ذلك، ولم أعرف أن معاملة نقلي قد تعرضت لمؤامرتين كادتا تفسدان الموضوع وأنا غائب هناك لا أعلم ما يحدث، ولولا نباهة أبي خالد وصدق الوقفة منه لما جئت إلى الرياض وقد أكون هناك في هولندا أو الإمارات أو هارفرد، وتلك قصة لم أقرر بعد كشف كل تفاصيلها، غير أني ـ فحسب ـ أنسب الفضل لصاحب الفضل، وأشير بالتقدير لدور هذا الرجل الوفي والصادق: محمد الهدلق.

رجل قتلته الكتب
عقل غيرك تضيفه إلى عقلك

عاش الجاحظ في الكتب ومات في الكتب، حيث مات وعلى صدره كتاب، وكانت الكتب قد تساقطت عليه وغمرت أنفاسه وهو مصاب بداء الفالج وهو الداء الذي أعاق جسده ولكن لم يعق حبّه للكتب، لم يتزوج الجاحظ ولم يخلف ذرية وليس له عصبة عائلية وقد خرج من عالم الظلمات والتهميش، ولولا علاقته بالكتب لما صار ولا مرّ على بال أحد. ولكنه ولد وفي فمه وحشة للكتاب، وقد شقّ طريق حياته كلّه في بحث أبدي عن الكتاب، وفي مطلع حياته كان يستأجر دكاكين الوراقين في الليل حيث هي مغلقة أصلاً ولا نفع فيها في وقت الليل، إلا أن الجاحظ حوّل غير النافع إلى نافع، وإذا استغنى التاجر عن دكانه ليلاً فإن الفتى الجاحظ العينين سيكتشف طريقة يستثمر فيها هذا الوقت الضائع، وهو إذا استأجر دكان الوراق فإنما ليمضي ليلة كاملة على سراج بسيط يقرأ في الكتب حتى إذا جاء الصباح سلّم الدكان لصاحبه ومضى هو لينام بعد أن ترحّل ليله كله في صحبة العقول البشرية المسجّلة على الورق، ومن هنا جاء تعريفه البارع لهذا النوع من الحياة بقوله: (والأدب هو عقل غيرك تضيفه إلى عقلك).

القراءة عقل مخبوء في كتاب ويتحرك هذا العقل مع تقليب الصفحات وأنت ترى البشر أمامك على الورق وهم البشر الذين رآهم الجاحظ وأخذ عنهم وتربى عقله عليهم ولقد كسب الجاحظ عصارة الفكر البشري في زمنه وجاءت ذاكرته متنوعة ومعمورة بلغات الآخرين وكلماتهم ومعانيهم، وعبر هذا الخليط العقلي واللغوي والمعلوماتي جاء الجاحظ ليفيض بهذه البحار ويتدفق بمياهها وإنك لترى الخليط الثقافي العجيب لدى أبي عثمان بدءاً من موسوعته عن الحيوان إلى معارفه بعلوم العرب وأعرافهم، وحياة الأعراب ولهجاتهم وأخبارهم، إلى تبحّره في (علم الكلام) وريادته لمدرسة كلامية تسمت باسمه، ويحيط بهذا كله ظرف وذهن ثاقب توسّل بالاستطراد كحيلة ثقافية لتغليف رسائله الخاصة من تحت المتن الرسمي، فكتب نوادره ورسائله ومبارزاته الكلامية والأدبية، وكتب عن البخلاء وقصص الأعراب وحكايات أهل المدن وعجائب البشر، في خليط ثقافي يضم خطابات مزدوجة ما بين المداهن للمؤسسة الرسمية والاجتماعية حيث المتن بوقاره وتحصّنه، وما بين الخطاب النقدي الذي يتستّر بستر السخرية والنادرة ويأتي وكأنما هو طرفة ونكتة، وهو في صلبه نقد لاذع وتشريح للمؤسّسة وفضح لسلطويتها. ولا تنقصه الحيلة في ذلك حيث يراوح خطابه النقدي بين النوادر وبين المحاورات المفترضة التي يجريها على ألسنة المهمشين من الجواري والغلمان والسود وكافة أنواع الفئات البشرية من أعراق وثقافات وطبقات، وهي كلها حيل ثقافية توسّل بها الجاحظ لعرض سوءات المجتمع وأنساقه الثقافية بكل تقاطعاتها.

لقد كان من أمثال العرب قولهم: كل لسان إنسان، وهو مثل

تراه حيّاً في صنيع الجاحظ، حيث استخدم ألسنة المجتمع كلّها للتعبير عن مكنونات نفسه، وإن كان الشعراء يحتالون بالمجاز الشعري تحت مفهوم أن أجمل الشعر أكذبه وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وأن قولهم هو قول لا يحاسبون عليه، فإن الجاحظ توسّل بالسخرية وأسلوب الاستطراد لكي يرفع عن كاهله اللوم فيسوق الطرفة مساق الإطراب والتسلية مثلما يسوق المحاورات بين الفئات مساق التندّر والتظرّف فيمرّ خطابه غير مراقب ولا محاسب مثله مثل المجاز الشعري. ولكنه في الحقيقة كان يرسل رسائله الخاصّة ويقوم بإيصالها ببيان عميق وتوثيق ثقافي خالد، ولقد صار القوي والفاعل من حيث هو ضعيف بلا عصبة ومن حيث هو مفرد ووحيد ولكنّ ذكاءه وسلاحه الثقافي فرض لغته ومقولته على الذاكرة الثقافية في تاريخ الفكر العربي كله.

بدأ بالسخرية من نفسه فروى أن قوماً ذكروا اسمه للخليفة المتوكّل ليأخذه مربياً لبعض ولده، فذهب الجاحظ لإجراء مقابلة لهذا الغرض وهنا يروي قائلاً: إن المتوكّل حينما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني. ومثلها ما رواه عن قصّة له مع فتاة حيث يقول: أتتني فتاة وأنا على باب داري فقالت: لي بك حاجة وأريد أن تمشّي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إليَّ بفص وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: يا ستي ما رأيت الشيطان، فأتت بك وقالت ما سمعت.

روى الجاحظ هذه القصص عن نفسه مستثمرا بذلك قبحه

ليكون سلاحاً ثقافياً يقاوم به السلطة الاجتماعية التي تمرّست في التهميش، وكان هو قد جاء من قاع التهميش وقرر أن يعرّي لغة المجتمع وحيله النسقية في الإفراد والإلغاء، ولذا وضع الخليفة من جهة والفتاة من جهة أخرى في سلَّم ثقافي يكشف عن مجتمع وثقافة تحمل عيوبها الخاصة مثلما تحمل أمجادها، وهو قد وضع الوجهين معاً حيث كشف عن لغة العرب بأبهى صورها البيانية ونافح عن مقام الثقافة العربية في مقابل الشعوبية المحتدمة حينها، وفي الوقت ذاته عرّى عيوب المجتمع العباسي، في تقابل بين كافة الوجوه الثقافية. وتبعاً لذلك التزاوج بين مستويات الثقافة فإنه سجَّل مستويات الأداء اللغوي بين البسطاء والعامة وبين الفصحاء وعلية البلغاء، وكلمة (ستي) في هذه القصة مفردة تدل على لهجة شعبية لم يغفلها الجاحظ ورصدها مثل رصده لخطب أهل البيان. ولعل عنوان كتابه (البيان والتبيين) يدلّ على هذين البعدين في المستوى اللغوي حيث مصطلح البيان للعلية بينما يشير التبيين إلى لغة التداول اليومي، في تقابل مستمرّ عند الجاحظ بين المتن حيث المؤسسة الثقافية الرسمية، وبين الاستطراد حيث الثقافة الشعبية. وأولى مواد الثقافة الشعبية هي القصّ الشفاهي ومادّته التي يبدأها بنفسه وبتشريح جسده وشكله وتاريخه، ويسحبها لتشمل أعلى رؤوس المؤسّسة السياسية والدينية والثقافية.

لقد كان الجاحظ مثالاً للمثقف الحر والناقد المعارض ثقافياً، وعاش بالكتب ومع الكتب، ومات بالكتب.

قتلته الكتب وهو الرجل الذي افتتح كتابه (البيان والتبيين) مستعيذاً بالله من (فتنة الكلام)، وكان حريصاً على أن يعيش واقعياً

ولا يتعالى على طبقته التي جاء منها ولم ينس أبداً أنه من الهامش وأن قبح وجهه ظلّ معه مذكراً له بماضيه الشعبي، وحاملاً لهذه العلامة في علاقته مع المجتمع حتى صار القبح سمة له وتسمى به، حيث كلمة الجاحظ جاءت بسبب جحوظ في عينيه جعلت الناس تسميه بهذا الاسم. ولم تكن هذه التسمية منه ولا من أبيه ولكن الناس وسموه بعيبه الخلقي حتى صارت اسماً له، وتقبّل هو هذه السخرية واتخذها اسماً له ليدين مجتمعه مثلما تقبّل نكتة الفتاة عليه وتصرف المتوكل معه ورواهما. لقد حمل هذا الاسم وجعله علامة عليه وعلامة على عنف المجتمع وسخريته، قبل بالعلامة الفارقة اسماً له وعنواناً عليه، وتوسّل بها لترقيق مشاعره عن حاله وفي الوقت ذاته وظّفها كمنهج نقدي يكشف سيرة المجتمع مع المختلف والمخالف. وعبر هذا عاش الجاحظ فردا وظل قيمة فردية لا يستند إلى عصبة ولا يتبع غيره حتى من الناحية الفكرية، حيث أسّس لمنهجه الخاص وصنع منهجية فكرية دينية سُمّيت الجاحظية. هو المفكّر الذي أضاف عقول الآخرين إلى عقله ومن هذا تعددت عقوله وتعددت كتبه، وتعددت رؤاه، وتنوّعت أساليبه. وسيبقى الجاحظ في ثقافتنا مثالاً حيّاً على توظيف الكتاب بوصفه عقلاً تفاعلياً، وفي توظيف الشعبي بوصفه روحاً ثقافية في تزاوج فاعل وإيجابي حتى وإن دفع المرء ثمناً غالياً لذلك.

في خدمة الكتاب

إنها لمتعة فاتنة أن تجلس بين الكتب تراها في صور وأحجام وأشكال وألوان وتطل عليك كعوبها بين الرفوف وتحسّ أنها تتكلّم معك وتنظر إليك وتستجيب لهواجسك. وفي حياتي تعلّمت هذه المتعة ومارستها وما مرّ يوم إلا وجلست في مكتبتي أتأمّل وأسرح النظر بين الكتب وقد تطول الجلسة وأنا أترك نفسي منسابة تقودها النظرات ويعمّها الصمت العميق والممتدّ عبر القرون بين الشعراء والكتاب وبين اللغات. ويمرّ الوقت في هذه الرحلة الخيالية وكأني وسط نسائم التاريخ وهمسات الزمن، وأنا واحد من هؤلاء القابعين وسط الصفحات آخذ وأعطي معهم.

تلك جلسة يومية تعوّدت نفسي عليها، وعرفتني بها كل مكتبة عشت بها، وكم أعطتني هذه من سلوة وعزاء، وكنت في أدنبره في اسكتلندا وفي إكستر في جنوب غرب بريطانيا أجد بين الكتب راحة وحضناً يحتويني ويستلّ همومي بين الدرس البحثي الشائك والخوف من المصير المجهول أمام مهمتي الدراسية. وكان أقسى ما يمرّ بنا حين الدرس هناك هو أن نفشل في دراستنا. وكنا نعرف أشخاصاً من بعض العرب ممن انتهت سنوات عنائهم إلى فشل ذريع. ونسمع عن ذلك الذي رفضت الجامعة أطروحته وعن الآخر الذي أوصى

المشرف بفصله، وعن ذاك الذي أعطوه الماجستير بدلاً من الدكتوراه، وكان ذلك في لحظة المنافشة التي كان يتطلّع إلى أن تكون خاتمة التعب. ومن الممكن أن تظل تدرس وتبحث ثماني سنوات أو أكثر وأنت مسجّل لنيل شهادة الدكتوراه رسميا، وبعد هذه السنوات العجاف يأتي يوم المناقشة وفيه يجري ما يجري، إذ قد يقرر المناقشون تقليص شهادتك إلى الماجستير إذا رأوا أن عملك لا يرقى إلى الدكتوراه. وقد يفرضون عليك إعادة كتابة الرسالة بمهلة أشهر أو أكثر، وقد يقررون رفض العمل كله، ومع السلامة. . . وقد صارت هذه كلها وكانت تنتصب أمام أعيننا على مدى سنواتنا كلها، وكان النظام في بريطانيا قاسياً وغير رحيم ولا مجامل، ولعله قد تخفف من كثير من سطوته السابقة الآن.

تلك هموم كانت تصاحب كل باحث منا وكان أمري مثل أمر زملائي في ذلك الخوف والتوجّس الدائم على مدى سنوات البعثة، وهذا الرعب المصاحب لم يكن له من سلوة غير جلسات التأمّل العميق بين الكتب وبين رفوف المكتبة. وأنت في صحبة الأوائل، ترى كلماتهم على أغلفة الكتب وتسمع أنفاسهم وكأنها تهدهد على قلبك وتعطيك السكينة في غربتك وفي وحدتك مع مصيرك المعلّق في الغيب.

للكتب فضل علي ليس في تثقيفي ـ فحسب ـ وإنما أيضاً في جلب السعادة إلى قلبي حيث صار منظرها يمثل لي روضة غناء ومتعة مستديمة.

ولهذا فإنني أشعر بأن معرض الكتاب وقد استقر موعده ومكانه في الرياض قد أصبح بالنسبة لي أسبوعا من الربيع المزهر، وصار

من ديدني أن أذهب في أوقات الضحى خاصة، وفي بعض الأماسي في تردّدات متكرّرة كي أضع نفسي في ضيافة الكتب وبين أنفاس الورق وصفحات الكلمات. وكلما مر بي شخص وسلّم عليّ أحسّ أنني وإياه في جنّة من جنّات الدنيا البهية، ولذا فقد صارت قصص المعرض وأحداثه ذات وقع خاص عندي، ومنها قصتان أراهما من أصدق القصص على صداقة الكتاب.

واحدة منهما تخص الصديق الأستاذ محمد المحيسن وقد رأيت منه ما جعلني أشعر بالغيرة من رجل ظهر حبه للكتاب بأكبر مما عندي، وقد تفتق ذهنه عن أمر لم يخطر لي على بال، وهذا الأمر يتعلّق بحركة البيع عند الناشرين، وكان السؤال الذي نشأ في نفس محمد هو: ماذا لو أن المشتري رغب في كتاب قيمته عشرة ريالات ثم قدم ورقة من فئة الخمسمئة، واكتشف أن الناشر لا يملك ما يرد به فارق المبلغ...؟ وهذا أمر يتكرر فعلاً ولو استمر لتعطلت به المبيعات وانتفى معه معنى المعرض.

لقد صار من ديدن محمد أنه تبرع بوقته وجهده وصار يدور على بنوك الرياض ويصرف منهم مبالغ كبيرة من فئة العشرة ريالات، ثم يأتي بها في كيس يتأبطه، ويشرع في توزيعها على الناشرين، خمسة آلاف لهذا وثلاثة لذاك وأربعة للثالث، وهكذا دواليك في جولة يومية تكررت أمامي، حتى إنني صرت أرقب لحظة دخول محمد إلى القاعة والكيس بيده والابتسامة تعمر وجهه. ثم أنظر إليه وهو يربت على كتف بسام كردي، صاحب المركز الثقافي وأنا جالس عنده، ويدسّ في يده خمسة آلاف من فئة العشرة، وكنت أرى بسام وهو يبتسم حتى صار بسّاماً فعلاً، ويلتفت إلي ويقول:

لولا هذه لتعطلنا عن العمل، وينصرف محمد المحيسن وعيوني تتبعه لأراه يمد مبلغاً آخر من كيسه إلى ناشر آخر، وهكذا يتحرّك السوق وتتحرك الكتب ولا أحد يعلم أن وراء هذه الحركة رجلاً له من الذكاء والمروءة ما جعله يعرف الحاجة الماسة لهذا العمل من دون أن يقال له ذلك، ولقد أمسكت به مرة كي أشكره على العمل الراقي والذكي، وقلت له ليتني كنت بمثل حسك هذا، وكيف بي لم أدرك هذه الحاجة وأنا جليس الكتب وصديق المعرض. وراح محمد يروي لي كم يلاقي من العنت مع البنوك حيث لا يجد عندهم مرونة في التجاوب مع صرف كميات كبيرة من العشرات، ويدخرونها لعملاء لهم من تجار السوق العام. وقال لي إنه يتنقل من بنك إلى بنك يومياً لكي يحصل على مبالغ تكفي لتغطية حاجة عدد من الناشرين، ولم يكل ولم يمل ولم يتثاقل من العمل هذا قط، وهو عمل تطوعي وفيه ذوق رفيع في النباهة والمروءة.

أما المنظر الثاني فهو لسليمان الوايلي، هذا الرجل الفذ في صداقته للكتاب وأنت تراه يدور كأنما هو صقر يقتنص الكتب ويعرف ما يحسن صيده ويميّزه عن غيره، وفي كل معرض من معارض الكتب العربية في كافة عواصم العرب ترى سليمان وهو يقتنص اللحظة ويقتنص الكتب، ثم يجمعها لنا من كل مكان ويقدمها معروضة لمبتغيها. ويعلم اللّه كم صرت أنا أتجنّب ذكر اسم أي كتاب على مسمع سليمان، لأنني أعرف أنه سيدخل في دوامة لا يبالي معها بأي مشقة إلى أن يأتي بالكتاب. ولقد صرت أشفق عليه حتى لا أريد أن أتعبه بمزيد على تعبه، إنه يتعب لكي نرتاح حتى صارت مكتبته بمثابة المعرض الدائم لأجَدّ الكتب وأندرها.

وهكذا يأتي محمد وسليمان كمثالين على خدمة الكتاب، وكمظهرين من مظاهر معرض الكتاب حيث تتحرك الثقافة بفعل رجال صارت الكتب همّاً لهم ومعنى من معاني العمل عندهم.

هما مثالان حاضران ويكملان تاريخاً عميقاً من ذاكرة كل واحد منا عن رجال خدموا الكتب وخدموا الثقافة بمحبة وإخلاص. وما من مدينة أو قرية إلا وتجد فيها أمثلة على هذا الصنف العجيب من البشر.

ملحق

لوحات دريدا والتمركز المنطقي

ـ 1 ـ

كانت اللحظة مثيرة حقّاً وذلك هو اليوم الذي انتظره الكثيرون لكي يستمعوا إلى جاك دريدا يلقي محاضرة في آرفاين في كاليفورنيا، وكنت أغبط صديقي وهو يحدثني عن تلك اللحظة، وهو صديق أمريكي أعرفه منذ سنوات وأعرف متابعته لديريدا، وكنت أتوقع منه أن يحدثني عن انطباعاته الفكرية عن المحاضرة، ولكنه انشغل وأشغلني معه في الحديث عن لغة دريدا الإنكليزية، وكيف أنه قدم منظراً طريفاً في علاقته مع هذه اللغة، لقد كانت إنكليزية دريدا ضعيفة جدّاً، ولم يشفق دريدا على نفسه من معاناة الحديث بلغة لا تنقاد له بسهولة بدءاً من نطقه لها، وهو نطق تتحكم فيه اللهجة ويبدو عليه التعسف حتى كأنه يستل الكلمات من بطن معجم إنجليزي / فرنسي، ثم إن الكلمات لا تسعفه في كل الوقت فيجد لسانه يعطي الكلمة الفرنسية، وفي بعض الأحيان يستعين برفقاء له لكي يزوّدوه بالكلمات الإنكليزية التي ظلت تتمرد على تذكره، ويسألهم كل لحظة وأخرى عن المقابل لهذه الكلمة أو تلك.

لقد انشغل صاحبي وانشغلت معه حول هذا المنظر، وتمنيت

أن لو كنت هناك لكي أرى الحالة أمامي، وهي حالة فعلاً ستأخذك من الأفكار إلى الطريقة التي نعبر بها عن أفكارنا، ولقد أحسست أن دريدا قد تعمّد أن يضع نفسه وجمهوره في هذه التجربة اللغوية الفريدة، حيث سترى فيلسوف اللغة الذائع الصيت وهو يعاني من اللغة نفسها، ويعاني من الربط ما بين لغتين، وقد عانى من قبل بين الربط بين اللفظ والمعنى وشغلته لعبة الربط هذه، ومنها بنى فلسفته كلّها، وهو في تلك المحاضرة كان يمتحن لعبة المعاني ويضع نفسه نموذجاً لها، وأظنه قد أحسن صنعاً إذ فعل ذلك، ولقد كان في مقدوره أن يتكلم بالفرنسية، وفي جمهوره عدد غير قليل ممن يفهم الفرنسية، وقد فعلها غيره من قبله، وكانت هناك ترجمة لمن لا يعرف الفرنسية، غير أن دريدا آثر أن يعاني الفعل اللغوي وأن يضع نفسه في لحظة الافتراق (الاختلاف) ما بين لغتين، يعرف إحداهما معرفة جيدة بينما يقف على تخوم الثانية ويأمل في اقتحامها مستعيناً ببعض ما يتذكر وببعض صحبه ومراهناً على قدرة سامعيه على ترميم شقوق الكلام وردع هوة المعاني (أي معاني. . .!!).

— 2 —

هل لدريدا أن يتخلى عن اسمه. . .؟

الاسم معنى وإذا تكون الاسم بصفته معنى فإنه ينتكس على صاحبه بمغبة هذه المعاني، وهذا ما حدث مع جاك دريدا حينما نشأت فكرة تكريمه في جامعة كمبريدج في بريطانيا، وكانت الفكرة بأن تمنح الجامعة شهادة الدكتوراه الفخرية له، وهنا جاء السؤال:

من هو (أو ما هو) جاك دريدا، والجواب سيحدد السبب في منحه الدكتوراه الفخرية.

العجيب هنا أن للجامعة سجّلاً طويلاً في المنح التكريمية في الدكتوراه، وفي السجل أسماء كثيرة بعضها لتجار ولعسكريين، مثلما أن بعضها لعلماء ومفكرين، ولم يحدث في تاريخ الجامعة قط أن صار الاسم معضلة، ولم يحدث أن سأل سائل في الجامعة عن اسم شخصية مكرمة، وكيف تكرم من تتساءل عن اسمه...؟

ولكن اسم جاك دريدا جاء ليكون معضلة إدارية وأكاديمية، ولذا رفض قسم الفلسفة في الجامعة تبنّي الترشيح بحجة أن دريدا ليس فيلسوفاً وأنه باحث لغوي، واقترحوا إحالة الموضوع إلى قسم اللغويات لدعم الترشيح، ولكن هذا القسم رد الموضوع مبرراً موقفه بأن الرجل ليس لغوياً ولا ألسنياً، وهنا بدأت مغبات المعنى تطارد الاسم وتحاصره، وهل هو اسم قابل للتحديد وهل المعنى هنا متفق عليه أم هو أحد صور المفارقة والاختلاف...؟؟

لقد وقع فيلسوف الاختلاف في مغبة اختلافه، ووقع في مصيدة التمركز المنطقي، حيث لا يتطابق مع حدود وأعراف المؤسسة، وهذا الذي كشف النسقية الثقافية في التمركز المنطقي، وكشف سلطة المعنى ووهميته في آن، ها هو في جامعة كمبريدج العريقة والعتيدة يقع تحت مطرقة المركزية المنطقية ومطرقة المعنى الواحد والنسق المحدد.

احتاجت الجامعة إلى طرح موضوع منح دريدا شهادة الدكتوراه الفخرية للتصويت، وفازت الفكرة بفارق صوت واحد، وهذا أمر يحدث لأول مرة في تاريخ الجامعة ذات الثمانية قرون، ولأول مرة

يجري بحث أمر كهذا في مجلس الجامعة بدلاً من تبنّيه من أحد الأقسام المتخصصة، ولكن لا أحد في الدكاكين الأكاديمية يستطيع تجرع اسم دريدا ولقد غصت به الحلوق حتى لم يجد من ينسبه إليه أو ينتسب له.

إنه فيلسوف الاختلاف، وهو صاحب اللغة المختلفة، وسيقول بعض الناس إنه عظيم لم يجد التاريخ بمثله من قبل، وسيقول آخرون إنه مهرج، وفكره ليس فلسفة وليس لغة، فماذا هو إذن. . . ؟

— 3 —

يكمن إشكال دريدا مع نفسه ومع مشروعه (ولم أقل مع فكره لكيلا أقع في المحذور المعرفي هنا). يكمن الإشكال في كون دريدا يبدأ نظرته للأشياء عبر رفض المعنى المؤسساتي، ولكن كل معنى في الكون هو معنى مؤسساتي بالضرورة، ومن هنا صار دريدا ضد المؤسسة صانعة المعاني، ولم يكن غريبا على كمبريدج أن تتوجّس منه، لأنها فهمت فكرته على وجهها العميق، وهل ستمنح صك التميز لرجل يلغيك ويساءل منجزك الفلسفي كله. . . ؟

إنه يلغيك وكفى، ولكي تبقى لا بد أن تلغي من ألغاك. هذه هي لغة السياسة وهي لغة الاقتصاد، وسنقول إنها لغة الثقافة أيضاً، وتاريخ الفكر كلّه يشهد على ذلك.

لا شك أن من يقرأ هذا الكلام سيتوقع من دريدا أن يرفض الدكتوراه الفخرية من كمبريدج لأنها شهادة المركزية المنطقية وشهادة في المعنى المؤسساتي غير الاختلافي، ولقد رفض سارتر من قبل

جائزة نوبل بعد أن مُنحت له، لأنه كان مؤمناً بفكره اليساري المعادي للرأسمالية بكل صيغها. ولكن دريدا قبل الشهادة وغض الطرف عن صراعات الجامعة حوله.

هل يقول لنا هذا إن فيلسوف الاختلاف جنح للسلم والمهادنة المؤسساتية ونظر إلى الأمر وكأنه يحمل مصلحة شخصية، وبرره بأن ما جرى هو إدانة للمؤسسة وكشف لها، وأن أي اعتراف من الجامعة بفيلسوف الاختلاف هو تفكيك لها لأنها قبلت بنقيضها ومقوضها...؟!

لا أعرف ردة فعل دريدا على الأمر ولكنّي أتصور أن تأويل ما حدث يأخذني لهذه الأبعاد...!

من المشهود عليه في تاريخ الثقافة أن المرء لا يرى عيوبه، حتى وإن كان فيلسوف العيوب وكاشف عيوب اللغة والمنطق. ولا شك أن دريدا قد وقع في لحن ثقافي حينما خضع للعبة المؤسسة ورضي بورقة تشهد له بنقيض ذاته، وهي شهادة فخرية ربما يجدها ورثة دريدا معلقة في جدار مكتبه وعليها خاتم الجامعة. وهنا يشهد التاريخ بأن رجل الاختلاف قد تم تعميده وتمت مأسسته بمؤامرة ماكرة من المؤسسة وتمرير من الرجل ضد مشروعه حتى صار أحد المعاني ولم يبق كأحد الاختلافات.

لقد روي عن أحد الوعاظ أنه قال لأتباعه اتعظوا بقولي ولا تنظروا إلى عملي، وذلك حينما أحرجه بعضهم وسأله: كيف به يعمل خلاف ما يقول ويرتكب بعض الآثام في حين ينهى الناس عنها.

هل نقول إن دريدا وقع بشيء من هذا أيضاً، وهل لنا أن نقول إننا نختلف عن هذا وذاك حينما ننتقد تصرفات المختلفين مع أنفسهم، ألسنا نحن مثلهم وأننا لا نرى عيوبنا مثلهم. . . ؟!

الملحوظ أن الثقافة ـ أي ثقافة ـ تصطنع أنساقها الخاصة على مر العصور، وأننا نحن كصنائع ثقافية نعيش في حال مزدوجة من الوعي الثقافي والعمى الثقافي معاً، حيث نستطيع أن نحصل على درجة من الوعي الفكري والفلسفي حتى لنرى عيوب الثقافة ونمتلك الجرأة المعنوية على كشفها وفضحها، ولكننا في الوقت ذاته نخضع لشيء من العمى الثقافي يصاحب الوعي ويختبئ من تحته ويلف عليه، وهذا العمى الثقافي يجعلنا كائنات بشرية مسخرة ومصطنعة في الوقت الذي نحن فيه مفكرون وناقدون ومنفتحون، وسنقول الشيء ونقيضه وسنفعل الضد مع الضد. وسنرى المرء ديموقراطياً ودكتاتورياً في آن وإنسانياً واستبدادياً في آن.

هذا درس أليم في سيرة البشر نتعلّمه لكي نعرف أن طريق الكشف البشري طويل جدّاً، وطريق المعرفة هو نفسه طريق الآلام، وحربنا مع الأنساق هي حرب عويصة، وكل نقد نوجّهه للنسق لا بد أننا نحن ـ نقاد النسق ـ قد وقعنا أو سنقع فيه، أو في الأقل هو موعد يتربّص بنا، وسيهزمنا في لحظة ما.

خبايا الحداثة (حداثات...؟؟)

(إني لأستحي من اللّه أن أخشى معه أحداً)

إسماعيل الأشدق

من حق الأخوة في قناة (دليل) أن أقول إنني سعدت بلقائي عندهم، يوم الجمعة ما قبل الماضي، وما مقالتي اليوم إلا امتداد لذلك اللقاء السعيد حقاً، وحينما تداخل الشيخ عوض القرني قال كلاماً كثيراً من بينه أنه طلب مني كشف خبايا الحداثة مما أعلمه ولا يعلمه ـ بحسب عبارته ـ والحق أنني كنت كحال من قال عنه المتنبي: إذا حسن فعل المرء حسنت ظنونه (طبعاً المتنبي قالها بحسب قانون دلالة التضاد، فإذا قال: إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه فهو يقول أيضاً: وإذا حسن الفعل حسن الظن، وهذا هو مقتضى دلالة التضاد)، وكنت لحظتها قد ظننت أن الشيخ يندبني إلى نقد خطاب الحداثة، وكانت إجابتي بالإحالة إلى بحثي في نقد الحداثة العربية بوصفها حداثة رجعية والمثال على هذه الرجعية هو أدونيس، وكنت أظنني قد أعطيت صورة عن الجواب الذي مال ظني إليه. وانتهى أمري عند هذا الحد. غير أن اللوم صار يتواتر علي من ذلك اليوم وما بعده، وقال لي الكثيرون إن الشيخ كان يقصد منك فضح الحداثة والحداثيين وكشف الخبايا، أي الاعتراف عليهم

والتشهير بهم، وما كنت أظن بالشيخ هذا الظن، غير أنني وعدت بعضهم بالاستماع إلى الحلقة مرة أخرى للتأكد من وجاهة ما ذهبوا إليه، وهذا ما حدث فعلاً بعد سماعي للتسجيل، إذ تبيّن لي أن الشيخ يعتقد أن الحداثة تنظيم خطير له خبايا وينطوي على خطر جسيم، وتبعاً لهذا الظن فإن الشيخ يريد مني أن أعمل له كمخبر سرّي أو كعميل سابق يكشف أسرار العصابة.

كم واللّه أود لو أن الشيخ لم ينزلق إلى هذا المنزلق الذي ما كنت أتصور قط أن خلقه الكريم سيسمح له به، وأنا أراه رجل مروءة وتقوى، ومن كانت هذه صفته فإنه لن يحقر أخاه إلى حد أن يطلب منه أن يكون مخبراً سرياً أو أن يكون عميلاً سابقاً تحسن دعوته لكشف الفضائح.

هذه مسألة شخصية تتعلّق بنظام التعامل بين البشر وعلاقة ذلك بالظن الكريم والمروءة وحسن التعبير، والكلمة الطيبة صدقة ـ كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ـ وأنا لن أطيل ملامة أخينا الشيخ وأتركه لمروءته في ذلك.

لكن الأمر الأهم والأخطر هو أن نتكلم بعقل وصدق وأمانة عن قضية لا يصح أبداً أن نتهاون بها، وهي: هل الحداثة تنظيم سرّي يقوم على خطط خطرة، ويجب حينئذ فضحها وكشف خباياها. . .؟؟

هذا هو منطق الشيخ وكنت أظنه قد وعى لغلطته القديمة في كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام)، وهو كتاب في التوهم والظنون أكثر مما هو موعظة حسنة، وخطايا الكتاب كبيرة وفادحة، ومن أهمها هذا التصور عن تنظيم مزعوم، ويبدو أن الشيخ ما زال يعتقد ذلك ويبحث عمن يساعده على تأكيد هذا الافتراض.

وأبدأ بأربع مقولات هي:

1 ـ الحداثة حداثات

2 ـ الحداثة ليست تنظيماً

3 ـ الحداثة ليست خطراً

4 ـ لقد انتهت مرحلة الحداثة ونحن الآن في زمن (ما بعد الحداثة).

وللتفصيل أقول ـ أولاً ـ الحداثة حداثات، ولكلّ حداثي تعريفه الخاص، وبقدر ما هنالك من حداثيين فإننا سنجد عدداً مماثلاً من التعريفات والتوجهات، ولو أخذت بودلير كمثال لوجدت أن حداثته حداثة جذرية / راديكالية تقطع مع الماضي بكل صيغه، وفي مقابله إليوت الذي اعتمد أهم ما في الماضي وهو الدين واللغة الكلاسيكية ـ بحسب تعريفه للكلاسيكية ـ، وعاد جسدياً من أمريكا إلى بريطانيا كتعبير رمزي وحسّي على مفهوم الأصل، وللحق فإن أدونيس يقول إن القرآن والحديث النبوي أصلان ويضع الحداثة بصفتها أصلا من الأصول (انظر بحثي: ما بعد الأدونيسية، في كتابي: «تأنيث القصيدة والقارئ المختلف»). كما أن أدونيس كتب عن الشيخ محمد بن عَبد الوهاب، وهو الآن يصف كتابه عن الشيخ بأنه الجزء الرابع من مشروعه حول الثابت والمتحول، ولي أن أقول إن الشيخ عوض لم يشر قط إلى هذه المعلومات عن أدونيس، ولن أجنح لسوء الظن فأقول إنه حجبها متعمداً أو إنه خشي أن تفسد عليه كشفه للسلبيات فقط، وإنما أقول ما أراه ملاحظة منهجية، وهي أن الشيخ لا يعرف بهذه المعلومات لأنه ليس من أهل هذا الحقل وليس

له باع فيه فغاب عنه الكثير والكثير من هذا ومن غيره.

وعوداً إلى موضوعنا أقول إن من الطريف أن بدر شاكر السيّاب كان يصف إليوت بالرجعي العظيم، ولم يكن هذا موقفاً ضد رأيه في الدين ولكنه موقف من الرأسمالية الغربية، وتبنّى السيّاب الشاعرة إديث سيتول كبديل عن إليوت تجنباً لملاحقة رفاقه من الماركسيين الذين يشنّعون على إليوت حينها، والشاعرة إديث سيتول هي صاحبة النصوص الدينية والأسطورية العريقة حتى لتكاد نصوصها تكون صيغة من كتب الدين، وكأنها كتاب دين حديث، وعند السيّاب بعدٌ ديني واضح، وأشد منه نازك الملائكة، وأنت هنا بين بودلير من طرف وإليوت من طرف آخر، وبينهما تنويعات لا تحصى. وهنا أقول إننا أمام حداثات وليست حداثة واحدة، وهذا شرط معرفي ومنهجي لا يصح أي حديث عن الحداثة من دون الأخذ به، ومن هنا كان مدخلي على الشيخ عوض ووصفي له بأنه يجهل الحداثة لأنه لا يعي بهذا الشرط المعرفي / المنهجي، ويفضي به هذا النقص إلى إصدار أحكام خاطئة لا تصح عند ذوي المعرفة.

ثانياً ـ الحداثة ليست تنظيماً، لأن من شرط التنظيم أن يتواطأ أصحابه على بيان متفق عليه وعلى ولاء لهذا البيان المفترض، وعلى رضا بزعامة وقيادة تؤسس لعصبة بين الأفراد، ووالله إن ما بين الحداثيين من نزاع وتنافس وتصارع ليفوق أي نزاع مرّ علي في التاريخ كلّه، ولقد كنت قلت في رسالة لي إلى أحد زملائنا قبل ربع قرن: وسوى الروم خلف ظهرك روم، ومغزاها أن السهام تأتينا من كل الاتجاهات، وكنت حينها ـ وما زلت ـ ألاقي من الحداثيين مثل ما ألاقيه من غيرهم، ونحن نعرف مأساة السيّاب وعذابه بالسجن

والملاحقة والتشريد والتربص من قوم سيسمّيهم الشيخ عصبة الحداثيين، ولا يسلم حتى من تطلق عليه صفة زعيم الحداثيين وقد وصفني الصديق رضا لاري بهذه الصفة، مثلما تبرّع لي صاحب شريط الحداثة بصفات أخرى ابتكرها من معجمه الخاص، وفي مقابل هذه الصفات لم أجد جيشاً ينتظر أوامري، ولم أكن أريد ذلك، وليس هذا في نظامي الفكري أو الخلقي، كما أنه ليس في نطاق الممكن أو المتصور أصلاً، بحسب واقع الحال.

وللخلافات تاريخ طويل أشهره ما جرى للشكلانيين الروس حيث تم سحقهم وتصفيتهم في روسيا الشيوعية وبعضهم عذب حتى بترت ساقه ومنهم من نفي إلى سيبيريا، وأجبر بعضهم على الظهور على التلفزيون لإدانة أنفسهم وإعلان براءتهم من الممارسة الألسنية والنقد الشكلاني، وفي فرنسا جرت صراعات عنيفة بين البنيويين والماركسيين، وكانت الماركسية بعامة ترى أن مدارس النقد الألسني خطر عليها. وامتدت آثار هذا الصراع عربياً. وإن كان اليسار العربي أقل قوة منه في موسكو وفرنسا، ولذا كان الصراع على مقدار طاقتهم وجرت ممانعة مضادة للبنيوية والنقد الألسني، ومقالاتي عن أستاذنا المرحوم محمود أمين العالم تعطي مثالاً لذلك (انظر كتابي: «الموقف من الحداثة»). ومحلياً بلغت الخصومات حدّاً وصفني به أحدهم بالخيانة الوطنية، وكان قد ابتدأ بوصفي بالخيانة الثقافية ثم أطبقها بالقول بالخيانة الوطنية، وهو شخص كان يرى نفسه حينها من أتباع أولئك. وقد أبلغني أحد الأخوة من الشرقية أن مؤامرة كانت تحاك ضدي وقال هذا الشخص إنه منع حدوث ذلك واقترح عليهم التعقل والتريث، وقد رويت هذا في كتابي «حكاية الحداثة».

والحرب علينا معشر الألسنيين كانت شرسة على مستوى الأشخاص وعلى مستوى المنابر، وكانت مقولة «وسوى الروم خلف ظهرك روم» هي أصدق وصف للحال. وهذا شاهد على أنك لست أمام جبهة واحدة متواطئة على أي شيء في ما بينها، ولقد تراوح التصدع ما بين قمع دموي في روسيا وصراع لفظي هائج في فرنسا وممانعة عربية.

ثالثاً ـ إذا قلنا إن الحداثة حداثات وتبعاً لذلك فإنها لا يمكن عملياً ومنهجياً أن تكون تنظيماً تبعاً لتنوعها من جهة وتصارعها من جهة أخرى، فإننا سنقول بالضرورة المنطقية إنها ليست خطراً داهماً أو متربصاً، وكيف يأتي خطر ـ أي خطر ـ من قوم تنوعوا حتى في طريقة استخدامهم للمفردات، ومارسوا الاختلاف علناً، وتعددت مشاربهم وهمومهم وغاياتهم، وظلّوا يعلنون ذلك ويجاهرون به، حتى لم تبق مجلة أو مطبوعة عربية من المغرب إلى البحرين إلا وكان هذا من أبرز أبوابها وأصواتها على مدى ستين عاماً ـ وتحديدي هنا مبني على لحظة ظهور السيّاب ونازك في عام 1948، وليس 1947، كما أشرت في دراساتي من قبل ـ.

الحداثة تيار وليست مذهباً ولا طريقة ولا مدرسة، إنها حالة ثقافية تنوّعت في أوروبا فلسفياً وسياسياً واقتصادياً ما بين نظم ليبرالية رأسمالية، وما بين نظم اشتراكية جذرية أو ديموقراطية، بينما انحصرت عربياً في الإبداع الشعري وانغلقت فيه، وبه كانت الحداثة العربية حداثة جزئية، ولم تلامس الأطر الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية. وظلت هذه الأطر تراوح ما بين الاضطرار الواقعي والتحفظ الذهني، ولم يصحبها جهد فكري أو إبداعي ـ كما حدث

في مجال الصيغ الشعرية والنظريات النقدية ـ وصارت الفجوة بين الخطابات في ما بين حداثة أدبية، وما بين خطابات أخرى لا تعي ما كان يجري في عالم الأدب والإبداع، وكأننا كنا نحاول الدخول في ماراثون عالمي ولكن بقدم واحدة. هذا عيب حداثتنا العربية. ولقد قال بذلك أناس كثر من مثل إحسان عباس وأدونيس، ولقد استفضت في ذلك في الفصل السابع من كتابي (النقد الثقافي).

رابعاً ـ مرحلة ما بعد الحداثة، نحن الآن في مرحلة ما بعد الحداثة، وهي مرحلة تقوم على نقد الحداثة بداية وتستدرك عليها أخطاءها، والمقام هنا لا يتّسع لي لسرد هذه الملاحظات، ولكني أحيل الراغب في الاستزادة إلى الفصل الأول من كتابي (النقد الثقافي) وهو موجود على موقعي على الإنترنت، مع سائر كتبي، وفيه تفصيل كاشف هناك.

غير أني أقول هنا إن أي حديث اليوم عن الحداثة هو حديث عن التاريخ، والحركة قد دخلت الآن في كتاب تاريخ الأدب وتاريخ الأفكار. وقلت من قبل إن الحداثة قد أصبحت طبخة بائتة، وهذا أمر له نقاشه الخاص، وفيه جدل غير قليل في فرنسا وألمانيا، ولكن ما يهمني هنا هو أن أحسم أمراً أخلاقياً ومنهجياً يتعلّق بالتوهم بأن للحداثة خبايا وقصصاً مثيرة كقصص العصابات والمهربين والمخربين، وأننا نحتاج إلى رجل تائب كي يكشف لنا المؤامرات...!!!!

هذا وهم وخداع للذات وخداع للآخرين ومظنة للإثم والتأثيم، وما زلت أقول إنني تعاملت مع سؤال الشيخ عوض من باب: إذا حسن فعل المرء حسنت ظنونه، ولذا كان تصوري هو أنني حسبته

يطلب مني ممارسة دوري كناقد فأعمل نقداً للذات وللخطاب، بوصف ذلك عملاً علمياً منهجياً شريفاً، وفيه مروءة وخلق كريم وفيه صدق مع النفس ومع الناس، أما غير ذلك فلم يخطر ببالي في يوم جمعة شريفة كنا معاً قد خرجنا من مساجدنا متعبدين ومسبحين ومهلّلين، ولذا صح لي أن أحسن الظن.

ولعلّي هنا قد بلغت العذر من الأخوة الذين لاموني، ولعلّي قد أوضحت حالتي الذهنية وقت استقبال مداخلة الشيخ. وإني لم أكن سأسيء الظن بشيخ يتصدّى لحث الناس على التقوى وتجنب الظن الآثم. وهذا هو سبب تعاملي مع سؤال الشيخ لحظتها تعاملاً علمياً، ولم يخطر ببالي قط أن الشيخ يقصد غير ذلك، ولكن توالي الملامة علي دفعني إلى مراجعة الحلقة فتبين لي أنني كنت ساذجاً فعلاً وبريئاً إلى حد الشفقة، وهذا ما صار.

وإن كنت صدرت مقالتي بأربع مقولات فإني أختمها بأربع أيضاً، وهي:

1 ـ ليس لدي ما أخفيه.

2 ـ ليس لدي ما أخاف منه (سوى مراعاتي لحق اللّه علي).

3 ـ ليس لدي ما أغمغم حوله.

4 ـ لست من أصحاب نصف الحقيقة ولا نصف الجواب ولا نصف الموقف ـ وكفى.

* في ما يتعلق بكتبي التي أحلت إليها في المقال أرجو العودة إلى موقعي على الإنترنت (www.alghathami.com). والكتب كلها هناك.

الفهرس



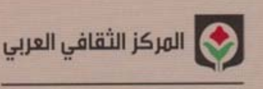
عبد الله الغذامي

اليد واللسان

من الملاحظ ثقافيا أن الناس قد تجاوبوا مع ثقافة الصورة بصيغة عريضة وسريعة ومغرية، وهذا مؤشر على ما تضمره النفوس من مخزون أنثروبولوجي للحس الشفاهي لدى البشر، وكأن البشر كائنات شفاهية أكثر منها أي شيء آخر، وهذا ما يجعلنا نأخذ بعين النظر ما كان الناس يمارسونه وقت سيطرة الكتاب حينما كان الوسيلة الأهم في تداول المعرفة، وكانت الممارسات تجري دوما لتحويل الكتاب إلى مادة صوتية، عبر تحويل الروايات إلى مسرحيات ممثلة، وإلى أفلام مصورة، وعبر الأمسيات الشعرية والمحاضرات والندوات والنقاشات حول الكتب، وكان الناس يكتشفون فروقا جذرية في فهمهم للمكتوب حينما يتحول إلى منطوق أو مصور، ولقد كان هذا مؤشرا إلى العلاقة الذهنية بين البشر والصوت، وبين البشر والصورة الحية، وكون هذا أكثر مدعاة للفهم والتفاعل. ولذا فإن الصورة المتلفزة حينما جاءت لتعم الكون الاستقبالي لاقت استجابة سريعة وتفاعلية معها حتى صار ذلك بمثابة العودة إلى الأصل الثقافي البشري، وتحول التواصل بين الناس ومصادر الثقافة ليأخذ هذه الصيغة الحديثة للشفاهية، وهذا تطور يجري ضد مصلحة الكتاب.

وإن كنا نقول بهذا فإننا نعززه بالقول إن ثقافة الكتابة لكي تحافظ على قدراتها التنافسية لابد لها أن تتمثل خصائص ثقافة الصورة، وهي خصائص واضحة المعالم، ومنها المباشرة والسرعة والتلوين والدقة والإثارة، وهي سمات تفاعلية نجحت مع النصوص التي تنطوي على هذه الصفات أو بعضها.

وهذا يفضي بنا إلى وضع تصوراتنا نحو الثلاثية الاصطلاحية: (يسمع) (يقرأ) (يبصر)، وما تحمله كل واحدة منها من بعد ثقافي وحضاري وتحولات مرحلية كبيرة وعميقة الدلالة، حيث تتولى البشرية تبديل علاقاتها مع ذاتها ومع محيطها حسب الوسيلة الثقافية المستخدمة، مما يشكل تنويعا في المصادر الثقافية.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-546-5
9 789953 685465

لوحة الغلاف: ديما الغذامي